

المعروف

لجبران خليل جبران

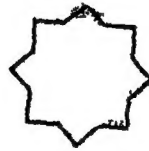


الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية	
رقم التسجيل:	8222
رقم التوزيع:	2
رقم التبريد:	1000

العمارة

جبران خليل جبران

و إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير
العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدد
بك ألا تقرأ جبران ..



كاو العرب
للبيئات

٢٨ ش الفجالة - القاهرة

الفهرس

صفحة	صفحة	
٦٩	٢	مقدمة
٧٢	٥	حفار القبور
٧٦	١٢	العبودية
٨٠	١٦	الملك السجين
٨٤	١٩	يسوع المصلوب
٨٨	٢٣	على باب الهيكل
٩٣	٢٧	أيها الليل
٩٧	٣١	الجنية الساحرة
١١٢	٣٤	قبل الانتحار
١٢٦	٣٧	يا بنى أمى
١٤١	٤١	نحن وأنتم
١٤٨	٤٥	أبناء الآلهة وأحفاد القروء
١٥٣	٤٨	بين ليل وصباح
١٥٦	٥٤	المخدرات والمباضع
١٦١	٦١	السرجين المفضض
١٦٤	٦٧	رؤيا

حفار القبور

فى وادى ظل الحياة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرت وحيداً
فى ليلة حجب الضباب نجومها ، وخامر الهول سكيتها .

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع المنساب كالحية الرقطاء ،
المتراكض كأحلام المجرمين ، وقفت مصغياً لهمس الأشباح ، محدقا
باللاشئ .

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الأرواح من أوكارها ،
سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب منى ، فالتفت فإذا بشبح جبار مهيب
منتصب أمامى ، فصرخت مذعوراً « ماذا تريد منى ؟ » .

فنظر لى بعينين مشعشتين كالمسارج ثم أجاب بهدوء « لا أريد شيئاً
وأريد كل شئ » .

قلت « دعنى وشأنى وسر فى سبيلك » .

فقال مبتسماً « ماسببلى سوى سبيلك » فأنا سائر حيث تسير

ورايض حيث تربض » .

قلت « جئت أطلب الوحدة فخلنى ووحدى » .

فقال « أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافنى ؟ » .

قلت « لست بخائف منك » .

فقال « إن لم تكن خائفاً فلماذا ترتجف مثل قصبة أمام الريح » .
قلت « إن الهواء يتلاعب بأثوابي فترتجف أما أنا فلا أرتجف » .
فضحك مقهقهاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال « أنت
جبان تخافني وتخاف أن تخافني فخوفك مزدوج ولكنك تحاول إخفاءه
عني وراء خداع أوهى من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني » .
ثم جلس على الصخر فجلست قسر إرادتي محققاً بملاحمه المهية .
وبعد هنيهة خلتها ألف عام نظر إليّ مستهزئاً وسألني قائلاً « ما
اسمك ؟ » .

قلت « اسمي عبد الله » .
فقال « ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبده ، فهلا دعوت
نفسك سيد الشياطين وأضفت بذلك إلى مصائب الشياطين مصيبة
جديدة » .
قلت « اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني إياه والدي يوم ولادتي فلن
أبدله باسم آخر » .

فقال « إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه
وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات » .
فحنيت رأسي مفكراً بكلماته ، مسترجعاً إلى حافظتي رسوم أحلام
شبيهة بحقيقته ثم عاد وسألني قائلاً « وما صناعتك ؟ » .
قلت « أنظم الشعر وأنتره ولي في الحياة آراء أطرحها على الناس » .
فقال « هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرهم » .
قلت « وماذا عسى أن أفعل بأيامي وليالي لأنفع الناس » .

فقال « اتخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات المكردة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم » .

قلت « لم أر قط جثث الأموات متكردة حول المنازل » .

فقال « أنت تنظر بعين الوهم فتري الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا متطرحين فوق الثرى ورائحة التتن تنبعث منهم » .

قلت وقد ذهب عنى بعض الوجمل « وكيف أميز بين الحى والميت وكلاهما يرتعش أمام العاصفة ؟ » .

فقال « إن الميت يرتعش أمام العاصفة أما الحى فيسير معها راكضاً ولا يقف إلا بوقوفها » .

واتكأ إذ ذاك على ساعده فبان عضاياه المحبوكة كأصول سندية مملوءة بالعزم والحياة ثم سألتنى قائلاً « أمتزوج أنت ؟ » .

قلت « نعم وزوجتى امرأة حسناء وأنا كيف بها » .

فقال « ما أكثر ذنوبك ومساوئك — إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة الاستمرار فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً » .

قلت « لى ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام ولا يلفظه فماذا أفعل بهم ؟ »

فقال « علمهم حفر القبور ، وأعط كل واحد رفشاً ثم دعهم وشأنهم » .

قلت « ليس لى طاقة على الوحدة والانفراد فقد تعودت لذة العيش بين زوجتى وصغارى فإن تركتهم تركتنى السعادة » .

فقال « ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستروراء
طلاء أبيض . ولكن إن كان لابد من الزواج فاقترب بصبية من بنات
الجن » .

قلت مستغرباً « ليس للجن حقيقة فلماذا نخدعنى ؟ »
فقال « ما أغباك فتى — ليس لغير الجن حقيقة ومن لم يكن من الجن
كان فى عالم الريب والالتباس » .

قلت « وهل لصبايا الجن ظرف وجمال » .
فقال « لهن ظرف لا يزول وجمال لا يذبل » .

قلت « أرى جنية فأقنع » .
فقال « لو كان بإمكانك أن ترى الجنية وتلمسها لما أشرت عليك
بزواجها » .

قلت « وما النفع من زوجة لا ترى ولا تمس ؟ » .
فقال « هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والأموات الذين
يختلجون أمام العاصفة ولا يسرون معها » .

وحول وجهه عنى دقيقة ثم عاد وسألنى قائلاً « ومادىك ؟ » .
قلت « أؤمن بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولى رجاء
بالآخرة » .

فقال « هذه ألفاظ رتبها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين
شفتيك أما الحقيقة المجردة فهى أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها
ولا تهوى غير أميالها ولا رجاء لك إلا بخلودها . منذ البدء والإنسان يعبد
نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه فتارة يدعوها

البعل وطوراً المشتري وأخرى الله » .
ثم ضحك فأنفجرت ملامحه تحت نقاب من الهزء والسخرية وزاد
قائلاً « ولكن ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم ونفوسهم جيف
منتنة » .

ومرت دقيقة وأنا أفكر بأقواله فأجد فيها معانى أغرب من الحياة
وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة . حتى إذا ماتاهت فكركى بين
مظاهره ومزاياه ، وهاجت آميالى لاستعلان أسرارهِ وخفائيه ، صرخت
قائلاً « إن كان لك رب فربك قلى لى من أنت » .

قال « أنا رب نفسى » .

فقلت « وما اسمك ؟ » .

قال « الإله المجنون » .

فقلت « وأين ولدت ؟ »

قال « فى كل مكان » .

فقلت « وأى متى ولدت ؟ » .

قال « فى كل زمان » .

فقلت « ممن تعلمت الحكمة ، ومن ذا الذى باح لك بأسرار الحياة
وبواطن الوجود ؟ »

قال « لست بحكيم فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء بل أنا
مجنون قوى أسير فتميد الأرض تحت قدمى وأقف فتقف معى مواكب
النجوم . وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الأبالسة ، وفهمت أسرار

الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل .
فقلت « وماذا تفعل في هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف أيامك
ولياالك ؟ »

قال « في الصباح أجذف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ،
وفي المساء أسخر بالطبيعة ، وفي الليل أركع أمام نفسي وأعبدها .
فقلت « وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام ؟ » .
قال « أنا والزمان والبحر لا ننام ولكننا نأكل أجساد البشر ونشرب
دماءهم ونتحلى بلهاتهم » .

وانتصب إذ ذاك مكبلاً ذراعيه على صدره ثم أهدق بعيني وقال
بصوت عميق هادئ « إلى اللقاء فأنا ذاهب إلى حيث تلتئم الغيلان
والجبابرة »

فهتفت قائلاً « أمهلني دقيقة فلي سؤال آخر » .
فأجاب وقد انحجب بعض قامته بضباب الليل « إن الآلهة المجانين لا
يمهلون أحداً — فإلى اللقاء » .

واختفى عن بصري وراء ستائر الدجى وتركني خائفاً طائشاً محتاراً
به وبنفسي .

ولما حولت قدمي عن ذلك المكان سمعت صوته متموجاً بين تلك
الصخور الباسقة قائلاً :

« إلى اللقاء إلى اللقاء » .

وفي اليوم التالي طلقت امرأتى وتزوجت صبية من بنات الجن ، ثم

أعطيت كل واحد من أطفالى رفشاً ومحفراً وقلت لهم « اذهبوا وكلما
رأيتم ميتاً واروه فى التراب » .
ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات ، غير أن
الأموات كثيرون وأنا وحدى وليس من يسعبنى !

العبودية

إنما الناس عبيد الحياة وهى العبودية التى تجعل أيامهم مكتتفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع .
ها قد مر سبعة آلاف سنة على ولادتي الأولى وللآن لم أر غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين .

لقد جبت مشارق الأرض ومغاربها وطففت فى ظل الحياة ونورها ، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصروح ، ولكننى لم أر للآن غير رقاب منحنية تحت الأثقال ، وسواعد موثوقة بالسلاسل ، وركب جائية أمام الأصنام .

وقد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس ومن نينوى إلى نيويورك ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار أقدامه ، وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون .

دخلت القصور والمعاهد والهياكل ، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر؛ فرأيت العامل عبداً للتاجر والتاجر عبداً للجندى ، والجندى عبداً للحاكم والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم والصنم تراب جبلته الشياطين ونصيته فوق راية من جماجم الأموات .

دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء، ووقفت في المخادع الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي المآوى المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء ، والصبايا يرتدين الملابس مبطنّة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجن على أسرة الطاعة والامتثال .

اتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ الفرات إلى مصب النيل إلى جبل سينا إلى ساحات أثينا إلى كنائس رومية إلى أزقة القسطنطينية إلى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها إلهاً ، ثم يسكبون الخمر والطيوب على قدميها ويدعونها ملكاً ، ثم يحرقون البخور أمام تماثيلها ويدعونها نبياً ، ثم يخرجون ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعونها وطنية ، ثم يستسلمون إلى مشيئتها ويدعونها ظل الله على الأرض ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعونها إخاء ومساواة ثم يجدون ويجهدون في سبيلها ويدعونها مالا وتجارة .. فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واحدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد ، بل هي علة أزلية أبدية تنجى بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة وتلقى بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول .

وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها :

العبودية العمياء — وهى التى توثق حاضـر الناس بماضى آباءهم وتنبـخ نفوسهم أمام تقاليد حدودهم وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة وقبوراً مكلسة لعظام بالية .

والعبودية الخرساء — وهى التى تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التى يمتقتها وتلصق جسدها المرأة بمضجع الزوج الذى تكرهه وتجعلهما من الحياة بمنزلة النعل من القدم ...

والعبودية الصماء — وهى التى تُكره الأفراد على اتباع مشارب محيطهم والتلون بألوانه والارتداء بأزيائه فيصبحون من الأصوات كرجع الصدى ومن الأجسام كالحيلالات .

والعبودية العرجاء — وهى التى تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة المحتالين وتسلم عزم الأقوياء إلى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون مثل آلات تحركها الأصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء — وهى التى تهبط بأرواح الأبطال من الفضاء المتسع إلى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ويقطن الذل فى جوار القنوط فيشبون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين .

والعبودية الرقطاء — وهى التى تبتاع الأشياء بغير أثمانها وتسمى الأمور بغير أسمائها فتدعو الاحتيال ذكاء والثروة معرفة والضعف ليناً والجبانة إباء .

والعبودية العوجاء — وهى التى تحرك بالخوف السنة الضعفاء فيتكلمون بما لا يضمرون ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه

وتنشره .

- والعبودية الحذباء — وهى التى تقود قوماً بشرائع قوماً آخرين .
- والعبودية الجرباء — وهى التى تتوج أبناء الملوك ملوكاً .
- والعبودية السوداء — وهى التى تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء .
- والعبودية للعبودية نفسها هى قوة الاستمرار .

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال ، ومللت النظر إلى مواكب الشعوب والأمم جلست وحيداً فى وادى الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية : هناك رأيت شبحاً هزىلاً يسير منفرداً محدقاً بوجه الشمس فسألته (من أنت وما اسمك ؟) .

قال « اسمى الحرية » .

قلت « وأين أبناؤك ؟ » .

قال « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد »

ثم توارى عن عيني وراء الضباب .

الملك السجين

خفف عنك أيها الملك الأسير فلست في سجنك أشد بلاء منى في
جسدى، اربض وكن متجلداً يا أبا الأهوال ، فالاضطراب أمام النوائب
حرى بينات آوى ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن
والسجان .

سكن روعك يافتى العزم وانظر إلى فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين
قضايا القفص ، وما الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روحى ولكنه
يخشى الاقتراب إليك .

كلانا منفى عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه فخفض عليك جأشك
وكن مثلى صابراً على مضض الأيام والليالى ، ساخراً بهولاء الضعفاء
الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم .

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون ؟
لقد صرخت قبلك فى آذانهم فلم أستوقف غير أشباح الدجى ،
وتفحصت مثلك طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبراً
أمام المقيدىن بالسلاسل وضعيف يتوقح متصلباً أمام المسجونين فى
الأقفاص .

انظر أيها المليك الجبار ، انظر إلى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ،
تفرس في وجوههم تجد في ملاحظهم ما كنت تراه في سحنات أدنى رعاياك
وأعوانك في مجاهل الصحراء فمنهم من يشبه الأرنب بضعف قلبه ومنهم
من يماثل الثعلب باحتياله ومنهم من يضارع الأفعى بجشئه ، ولكن ليس
بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى .

انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل ، وهذا كالجاسوس
خشونة أما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشى على
الائتئين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيه في الهياكل . وتلك
كالطاووس تيباً وإعجاباً أما ريشها فمستعار .

وانظر أيها السلطان المهيب . انظر إلى تلك القصور والمعاهد ، فهي
أو كار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخرأ بزخارف سقوفها التي تحجبه عن
النجوم مغتبطاً بصلاية جذرائها التي تفصله عن أشعة الشمس . هي
كهوف مظلمة تذبل في ظلها أزاهر الشباب وترمد في زواياها جمرة
الحب وتتحول في فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان ، هي
سرادب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع وينتصب فيها
تحت العروس بقرب نعش الميت .

وانظر أيها الأسير الجليل انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة
الضيقة فهي أودية خطيرة المعابر يتربص للصوص بين منرجاتها وتخنيئ
الخوارج بين جنباتها ، هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب ، والرغائب
تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف . وتتصارع متناهشة
ولكن بغير الأنياب : بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة
(العواصف)

المظاهر ، معطرة الأذنان ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء
الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل
والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب . أما ملوكها فليست أسداً نظيرك بل
هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبرائن الضبع وألسنة العقارب ونقيق
الضفادع .

* * *

فدتك روحى أيها المليك السجين فقد أطلت الوقوف لديك وأسهب
بالكلام أمامك ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك
المخلوعين وهى النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء
والمستوحشين فساح فتى يلوك الكلام متسلماً به عن الطعام ويرتشف
الأفكار مستعيضاً بها عن الشراب .

إلى اللقاء أيها الجبار المهيب فإن لم يكن اللقاء فى هذا العالم الغريب
فسيكون فى عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح الملوك بأرواح الشعراء .

يسوع المصلوب

« كتبت يوم الجمعة الحزينة »

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلقة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب .. وعندما تغيب الشمس عن مآقي النهار تعود الإنسانية وتركع مصلية أمام الأصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل .

اليوم تقود الذكرى أرواح المسيحيين من جميع أقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً قارعين صدورهم ، محدقين بشبح مكلل بالأشواك باسط ذراعيه أمام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت إلى أعماق الحياة .. ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون ويضطجعون جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول .

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء أوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عال صامتين متبیین مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتليه : (يا أبته ، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون) .. ولكن لا تكتنف السكينة أصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء ويكفنون

أرواحهم بصفحات الكتب البالية .

إن النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى والحلل يخرجن اليوم من منازلهن يشاهدن المرأة الحزينة الواقفة أمام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء ويقتربن منها ليسمعن أنينها العميق وغصاتها الأليمة .

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنية ويلتفتون إلى الوراء ليروا الصبية المجذلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمى رجل منتصب بين الأرض والسماء . ولكن عندما تمل عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين .

فى مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصرى ثم تطبق أجفانها وتنام نوماً عميقاً . أما الربيع فيظل مستيقظاً مبتسماً سائراً حتى يصير صيفاً مذهب الملابس معطر الأذيال .

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال . ولو كانت الإنسانية رجلاً لفرحت بمجدهم وعظمتهم .

الإنسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التى تهصر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقدار المنتنة .

الإنسانية ترى يسوع الناصرى مولوداً كالفقراء عائشاً كالمساكين مهاناً كالضعفاء مصلوباً كالحجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كل ما تفعله

لتكريمه .

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ،
ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية .

ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجعاً بل عاش ثائراً
وصلب متمرداً ومات جباراً .

لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر
بهبوبها جميع الأجنحة المعوجة .

لم ينجى يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل
جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية .

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجع أمام قاتليه بل
كان حراً على رؤوس الأشهاد جريئاً أمام الظلم والاستبداد ، يرى البشور
الكرهية فيبضعها ، ويسمع الشر متكلماً فيخرسه ، ويلتقى بالرياء
فيصرعه .

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبنى من حجارتها
الأديرة والصوامع ويستوى الرجال الأشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً
بل جاء ليثبت في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوض قوائم العروش
المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام
المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين .

لم ينجى يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في
جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة ، بل جاء ليجعل قلب
الإنسان هيكلًا ونفسه مذبحة وعقله كاهنًا .

هذا ماصنعه يسوع الناصرى وهذه هى المبادئ التى صلب لأجلها
مختاراً ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيخ الغلبة
والانتصار .

* * *

وأنت أيها الجبار المصلوب ، الناظر من أعالى الجلجلة إلى مواكب
الأجيال السامع ضجيج الإثم ، الفاهم أحلام الأبدية ، أنت على خشبة
الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالاً ومهابة من ألف ملك على ألف عرش فى
ألف مملكة . بل أنت بين النزع والموت أشد هولاً وبطشاً من ألف قائد
فى ألف جيش فى ألف معركة .

أنت بكآبتك أشد فرحاً من الربيع بأزهاره . أنت بأوجاعك أهدأ
بالأ من الملائكة بسمائها ، وأنت بين الجلادين أكثر حرية من نور
الشمس .

إن إكليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج بهرام ، والمسمار
فى كفك أسمى وأفخم من صولجان المشتري ، وقطرات الدماء على
قدميك أسنى لمعاناً من قلائد عششروت ، فساح هؤلاء الضعفاء الذين
ينوحون عليك لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم ، واغفر لهم لأنهم
لا يعلمون بأنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن فى القبور .

على باب الهيكل

قد طهرت شفتى بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ولما فتحت شفتى للكلام وجدتنى أخرساً .

كنت أترنم بأغاني الحب قبل أن أعرفه ولما عرفته تحولت الألفاظ فى فمى إلى لهات ضئيل ، والأنغام فى صدرى إلى سكينه عميقه .

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونى عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت أحدثكم وأقنعكم ، أما الآن وقد غمرنى الحب بوشاحه ، فجئت بدورى أسألكم عن مسالكه ومزايه فهل بينكم من يجيبنى ؟ جئت أسألكم عما بى وأستخبركم عن نفسى فهل بينكم من يستطيع أن يبين قلبى لقلبى ويوضح ذاتى لذاتى ؟

ألا فاجبرونى ما هذه الشعلة التى تنقد فى صدرى وتلتهم قواى وتذيب عواطفى وأميالى ؟

وما هذه الأيدى الخفية الناعمة الخشنة التى تقبض على روحى فى ساعات الوحدة والانفراد وتسكب فى كبدى حمرة ممزوجة بمرارة اللذة وحلاوة الأوجاع ؟

وما هذه الأجنحة التى ترفرف حول مضجعى فى سكينه الليل فأسهر مترقباً ما لا أعرفه مصغياً إلى ما لا أسمع ، محذقاً بما لا أراه ، مفكراً بما

لا أفهمه ، شاعراً بما لأدركه ، متأوهاً لأن في التأوه غصات أحب إليّ
من رنة الضحك والابتهاج ، مستسلماً إلى قوة غير منظورة تميتنى
وتحيينى ثم تميتنى وتحيينى حتى يطلع الفجر ويملاً النور زوايا غرفتى فأنا
إذ ذاك وبين أجفانى الذابلة ترتعش أشباح اليقظة وعلى فراشى الحجري
تتمايل خيالات الأحلام .

* * *

وما هذا الذى ندعوه حباً ؟
أخبرونى ما هذا السر الخفى الكامن خلف الدهور المختبئ وراء
المريئات ، الساكن فى ضمير الوجود ؟
ما هذه الفكرة المطلقة التى تجيء سبباً لجميع النتائج وتأتى نتيجة
جميع الأسباب ؟
ما هذه اليقظة التى تتناول الموت والحياة وتبتدع منها حلماً أغرب من
الحياة وأعمق من الموت ؟
أخبرونى أيها الناس — أخبرونى هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة
الحياة إذا ملمس الحب روحه بأطراف أصابعه ؟
هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ومسقط رأسه عندما تناديه الصبية التى
أحبها قلبه ؟
هل فيكم من لا يبحر البحر ويقطع الصخارى ويمجتاز الجبال والأودية
ليلتقى بالمرأة التى اختارتها روحه ؟
أى فتى لا يتبع قلبه إلى أقاصى الأرض إذا ما كان له فى أقاصى الأرض
حبية يستطيع نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنة

صوتها ؟

أى بشر لا يحرق نفسه بخوراً أمام إله يسمع ابتهاله ويستجيب
صلواته ؟

وقفت بالأمس على باب الهيكل أسأل العابرين عن خفايا الحب
ومزاياه فمر أمامى كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً
« الحب ضعف فطرى ورثناه عن الإنسان الأول » .
ومر فتى قوى الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً « الحب عزم يلزم
كياننا ويصل حاضرنا بماضى الأجيال ومستقبلها » .

ومرت امرأة كفيفة العينين وقالت متنهدة « الحب سم قتال تتنفسه
الأفاعى السوداء المتقلبة فى كهوف الجحيم فيسيل منتشراً فى الفضاء ثم
يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترتشفه الأرواح الظائمة فتسكر دقيقة ثم
تصحوا عاماً ثم تموت دهرأ » .

ومرت صبية مودة الوجنتين وقالت مبتسمة « الحب كوثر تسكبه
عرائس الفجر فى الأرواح القوية فيجعلها إن تتعالى متجمدة أمام كواكب
الليل وتسبح مترنمة أمام شمس النهار » .

ومر رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً « الحب
جهالة عمياء تبتدىء بيد الشباب وتنتهى بنهايته » .

ومر رجل ذو وجه صبوح وملاح منفرجة وقال فرحاً « الحب معرفة
علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما يراها الآلهة » .

ومر أعمى يحس الأرض بعكازه وقال منتحباً « الحب ضباب كثيف

يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود أو يجعلها لا ترى سوى أشباح أميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتيا من خلالي الوادي .

ومر شاب يحمل قيثارة وقال منغما « الحب شعاع سحري ينبثق من أعماق اللذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً في مروج خضراء والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة .

ومر هرم منحني الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً « الحب راحة الجسم في سكينه القبر وسلامة النفس في أعماق الأبدية .

ومر طفل ابن خمس وهتف ضاحكاً « الحب أبى والحب أمي ولا يعرف الحب سوى أبى وأمى .

وانقضى النهار والناس يمرون أمام الهيكل وكل يصور نفسه متكلماً عن الحب ويوح بأمانيه معلناً سر الحياة .

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول « الحياة نصفان نصف متجلد ونصف ملتهب فالحب هو النصف الملتهب .

فدخلت الهيكل إذ ذاك وسجدت راكعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلني يا رب طعاماً للهييب — اجعلني أيها الإله مأكلًا للنار المقدسة . آمين .

أيها الليل

ياليل العشاق والشعراء والمنشدين .

ياليل الأشباح والأرواح والأخيلة .

ياليل الشوق والصبابة والتذكر .

أيها الجبار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد
سيف الرهبة ، المتوج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، والناظر بألف
عين إلى أعماق الحياة ، المصغى بألف أذن إلى أنة الموت والعدم .

أنت ظلام يرينا أنوار السماء والنهار نوراً يغمرنا بظلمة الأرض .

أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيئة اللانهاية والنهار غرور يوقفنا
كالعميان في عالم المقاييس والكمية .

أنت هدوء يبيع بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء
العلوى ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك
المقاصد والرغائب .

أنت عادل يجمع بين جنحى الكرم أحلام الضعفاء بأمانى الأقوياء .
وأنت شفق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى
عالم أقل قساوة من هذا العالم .

بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون أنفاسهم وعلى قدميك

المغلقتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفي راحتك المعطرتين بطيب الأودية يضيّع الغرباء تنهدات شوقهم وحنينهم ، فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين .

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين ، فأنت ملقن الشعراء والموحي إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين والمتأملين .

* * *

عندما ملّت نفسي البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه النار سرت إلى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة .
هناك وقفت أمام كائن أقم جامد مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية .

هنالك أهدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لحفيف الأجنحة غير المنظورة شاعراً بملامس ملابس السكوت ، مستتبلاً أمام مخاوف الظلام .

هنالك رأيتك أيها الليل شبحاً هائلاً جميلاً منتصباً بين الأرض والسماء ، متشحاً بالسحاب ، ممنطقاً بالضباب ضاحكاً من الشمس ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين أمام الأصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج محملاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب أسيرة الأطفال ، باكياً لابتسام الساقطات مبتسماً لبكاء العشاق رافعاً يمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس .

هناك رأيتك أيها الليل ورأيتنى ، فكنت بهولك لى أباو كنت بأحلامى
لك ابناً ، فأزيجت من بيننا ستائر الأشكال وتمزق من وجهينا نقاب الظن
والتخمين فأبجحت لى بإسراك ونواياك ، وأبنتُ لك أمانى وآمالى حتى
إذا تحولت أهوالك إلى أنغام أعذب من همس الأزهار ، وتبدلت مخاوى
بأنس أطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتنى إليك ، وأجلستنى على
منكبيك ، وعلمت عيني النظر وعلمت أذنى السمع ، وعلمت شفتى
الكلام ، وعلمت قلبى محبة مالا يحبه الناس وكره مالا يكرهونه ، ثم
لمستُ بأناملك أفكارى فتدفقت أفكارى نهراً راكضاً مترنماً يجرى
الأعشاب الذابلة ثم قبلت بشفتيك روحى فتمايلت روحى شعلة متقدة
تلتهم الأنصاب اليابسة .

لقد صحبتك أيها الليل حتى صرتُ شبيهاً بك ، وألقتُ حتى
تمازجتُ أميالى بأميالك ، وأحببتك حتى تحول وجدانى إلى صورة
مصغرة لوجودك ، ففى نفسى المظلمة كواكب متلمعة ينثرها الوجد
عند المساء وتلتقطها الهواجس فى الصباح . وفى قلبى الرقيب قمر يسعى
تارة فى فضاء متلبد بالغيوم وطوراً فى خلاء مفعم بمواكب الأحلام . وفى
روحي الساهرة سكونية تبيح بتفاعيلها سرائر الحبين وترجع خلاياها
صدى صلواة المتعبدين . وحول رأسى غلاف من السحر تمزقه حشرة
المنازعين ثم تحيطه أغانى المتشبين .

أنا مثلك أيها الليل وهل يحسبني الناس مفاخرأ إذا ما تشبهت بك وهم
إذا تفاخروا يتشبهون بالنهار !

أنا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه .
أنا مثلك بأُميالي وأحلامي وخلقي وأخلاقى .
أنا مثلك وإن لم يتوجنى المساء بغيومه الذهبية .
أنا مثلك وإن لم يرصع الصباح أذياىلى بأشعته الوردية .
أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقاً بالجرّة .
أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتى بدء وليس
لأعماقى نهاية ، فإذا ما انتصبت الأرواح متباهية بنور أفراحها تتعالى
روحى متجمدة بظلام كآبتها .
أنا مثلك أيها الليل ولن يأتى صباحى حتى ينتهى أجلى .

الجنية الساحرة

إلى أين تسيرين بى أيتها الساحرة ؟
حتى مَ أتبعك على هذه الطريق الوعرة ، المناسبة بين الصخور ،
المفروشة بالأشواك ، المتصاعدة بأقدامنا نحو الأعلى ، الهابطة بنفسينا إلى
الأعماق ؟ .

قد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسياً مابى
من الأحلام ، محذقاً بما فيك من الجمال ، متعامياً عن مواكب الأشباح
المتطائرة حول رأسى ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة فى جسدك .
قفى بى هنيهة لأرى وجهك ، أنظرى إلّى دقيقة لعلى أرى فى عينيك
أسرار صدرك ، وأفهم من ملامحك مخبآت نفسك .
قفى قليلاً أيتها الجنية فقد مللت المسير وارتعدت روحى من مخاوف
الطريق قفى فقد بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة ، ولن أسير
خطوة أخرى حتى تستعلنَ روحى نيات روحك ، ويستوضح قلبى
خزائن قلبك .

* * *

اسمعى أيتها الجنية الساحرة :
كنت بالأمس طائراً حراً أتنقل بين السواق وأسبح فى الفضاء وأجلس

على أطراف الغصون عند المساء متأملاً بالقصور والهياكل فى مدينة الغيوم
المتلونة التى تبقىها عند الأصيل وتهدمها قبل الغروب .

بلى كنت كالفكر أسير منفرداً فى مشارق الأرض ومغاربها ، فرحا
بمحاسن الحياة ولذاتها ، مستقصياً خفايا الوجود وأسراره .

بل كنت كالحلم أسعى تحت جناح الليل وأدخل من شقوق النوافذ إلى
خدور العذارى النائمت وأتلاعب بعواطفهن . ثم أقف بجانب أسرة
الفتيان وأثير أمياهم ثم أجلس بقرب مضاجع الشيوخ وأستجلى
أفكارهم .

واليوم ، وقد لقيت أيتها الساحرة ، وتسمت بقبل يدك فقد
أصبحت مثل أسير أجر قيودى إلى حيث لا أدرى ، بل لى صرت مثل
نشوان أستزيد من الخمر التى سلبتنى إرادتى وألثم الكف التى صفعت
وجهى .

ولكن قفى قليلا أيتها الساحرة فها قد استرجعت قواى وكسرت
القيود التى برت قدمى ، وسحقت الكأس التى شربت منها السم الذى
استطيطته . فماذا تريد أن نفعل وعلى أية طريق تريد أن نسير !

قد استردت حرى فهل ترضين لى رقيقاً حراً « ويحدق بوجه
الشمس بأجفان جامدة ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة ؟ » .

قد فتحت جناحى ثانية فهل تصحبن فنى يصرف الأيام متنقلا
كالنسر بين الجبال ، ويقضى الليالى رابضاً كالأسد فى الصحراء ؟

هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً ويأباه سيدياً ؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

هل ترتاحين إلى أميال نفس ترتعش أمام العاصفة ولكنها لا تنهصر ،
وتثور مع الزوابع ولكنها لا تقتلع من مكانها ؟
هل ترضين بى صاحباً لا يستعبد ولا يُستعبد ؟
إذاً هذه يدي فهزها بيدك الجميلة . وهذا جسدي فضميه بذراعيك
الناعمتين وهذا فمي فقبله قبلة طويلة عميقة خرساء .

قبل الانتحار

فى هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالأمس المرأة التى أحبها قلبى .
إلى هذه المساند الوردية الناعمة قد ألفت رأسها الجميل ، ومن هذه
الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر ، ممزوجة بقطرة من العطر .
كل ذلك قد كان بالأمس ، والأمس حلم لا يعود ، أما اليوم فقد
ذهبت المرأة التى أحبها قلبى إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد
الخلو والنسيان .

إن آثار أصابع المرأة التى أحبها قلبى لم تزل ظاهرة على بلور مرآتى ،
وعطر أنفاسها ما برح متضوعاً بين طيات أثوابى ، وصدى صوتها لم
يضمحل بعد من زوايا منزلى — ولكن المرأة نفسها — المرأة التى أحبها
قلبى قد رحلت إلى مكان قصى يدعى وادى الهجر والسلوان. أما آثار
أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى فى هذه الغرفة حتى صباح الغد
وعند ذلك أفتح نوافذ منزلى لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيارها كل
ما تركته لى تلك الساحرة الحسناء .

إن رسم المرأة التى أحبها قلبى لم يزل معلقاً بجانب مضجعى ، ورسائل
الحب التى بعثت بها إلّى ما برحت فى العلبة الفضية المرصعة بالعقيق
والمرجان ، وذؤابة الشعر الذهبية التى حبتنى بها تذكّراً لم تخرج قط من

الغلاف الحريرى المبطن بالمسك والبخور — جميع هذه الأشياء ستبقى فى أماكنها حتى الصبح — وعند مجئ الصباح أفتح نوافذ منزلى ليدخل الهواء ويحملها إلى ظلمة العدم إلى حيث تقطن السكينة الخرساء .

إن المرأة التى أحبها قلبى شبيهة بالنساء اللواتى أحبتن قلوبكم أيها الفتیان . هى مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التى أحبها قلبى أيام الطفولة فكنت أركض وراءها فى الحقول وأتمسك بأذيالها فى الشوارع .

وعرفتُها أيام الصبا فكنت أرى خيال وجهها فى وجوه الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم المساء وأسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقى .

وعرفتُها أيام الرجولة فكنت أجالسها محدثاً وأسألها مستفتياً وأقترب منها شاكياً ما فى قلبى من الأوجاع باسطاً ما فى روحى من الأسرار . كل ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود أما اليوم فقد ذهبَت تلك المرأة إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

* * *

أما اسم المرأة التى أحبها قلبى فهو الحياة .
فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوى قلوبنا ، وتستغوى أرواحنا ،
وتغمر وجداننا بالوعود ، فإن أمطلت أماتت فينا الصبر وإن أبرت

أيقظت فينا الملل .

- الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها .
- الحياة امرأة ترتدى الأيام البيضاء المبطنة بالليالى السوداء .
- الحياة امرأة ترضى بالقلب البشرى خليلا وتأباه خليلا .
- الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره جمالها .

يابنى أُمى

ماذا تريدون منى يابنى أُمى ؟
أتريدون أن أبنى لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام
وهياكل مسقوفة بالأحلام أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون والجنباء
وأنقض ما رفعه المراءون والخبثاء ؟

ماذا تريدون أن أفعل يابنى أُمى ؟
أأهدل كالحمام لأرضيكم أو أزجر كالأسد لأرضى نفسى ؟
قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحت أمامكم فلم تبكوا فهل تريدون أن
أترنم وأنوح فى وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعاً وخبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية ولكنكم
لأناأكلون وقلوبكم تحتلج عطشاً ومناهل الحياة تجرى كالسواقى حول
منازلكم فلماذا لاتشربون ؟

للبحر مد وجزر ، وللقمر نقص وكال ، وللزمن صيف وشتاء. أما
الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟
ناديتكم فى سكىنة الليل لأريكم جمال البدر وهىة الكواكب فهبتم
من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين
« أين العدو لنصرعه ؟ » وعند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورجله

ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام .
قلت لكم : تعالوا نصعد إلى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم فأجبتهم
قائلين « في أعماق هذا الوادى عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا وفي
كهوفه قُبروا فكيف نتركه ونذهب إلى حيث لم يذهبوا ؟ » .
قلت لكم : هلموا نذهب إلى السهول لأريكم مناجم الذهب وكنوز
الأرض فأجبتهم قائلين « في السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق » .
قلت : تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطى البحر خيراته فأجبتهم
قائلين « ضجيج اللجة يخيف أرواحنا وهوى الأعماق يميت أجسادنا » .

* * *

لقد كنت أحبكم يا بنى أُمى وقد أضربى الحب ولم ينفعكم . واليوم
صرت أكرهكم والكراهة سيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم
سوى المنازل المتداعية .

كنت أشفق على ضعفكم يا بنى أُمى والشفقة تكثر الضعفاء وتنمى
عدد المتوانين ولا تجدى الحياة شيئاً . واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش
نفسى اشمئزاً وتنقبض ازدراء .

كنت أبكى على ذلكم وانكساركم وكانت دموعى تجري صافية
كالبُور ولكنها لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزال الغشاء عن عيني ولا
بللت صدوركم المتحجرة بل أذابت الجزع فى قلبى — واليوم صرت
أضحك من أوجاعكم والضحك رعود قاصفة تهب قبل العاصفة ولا تأق
بعدها .

ماذا تريدون منى يا بنى أُمى ؟

أتريدون أن أريككم أشباح وجوهكم في أحواض المياه الهادئة ؟ تعالوا إذن وانظروا ما أقبح ملاحظكم .

هلموا وتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد ، وعرك السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست الجبانة حدودكم فبانت كالخرق المتجعدة ، وقبل الموت شفاهكم فأمت صفراء كأوراق الخريف .

ماذا تطلبون منى يا بنى أمى — بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟.

أرواحكم تنتفض في مقابض الكهان والمشعوذين وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاطمين . فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلفة بالصداء ورماحكم مكسورة الحراب وتروسكم مغمورة بالتراب فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال ؟ .

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء فلماذا تحيون والموت راحة الأشقياء ؟

* * *

إنما الحياة عزم يرافق الشبيبة وجد يلاحق الكهولة وحكمة تتبع الشيخوخة ، أما أنتم يا بنى أمى فقد ولدتم شيوخا عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم أطفالا تتقلبون على الأوحال وتترامون بالحجارة .

إنما الإنسانية نهر بلورى يسير متدفقا مترنماً حاملاً أسرار الجبال إلى

أعماق البحر . أما أنتم يا بني أمى فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات فى أعماقها وتلوى الأفاعى على جنباتها .

إنما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير أوجه الآلهة — أما نفوسكم يا بني أمى فرماد تذرله الرياح على الثلوج وتبدده العواصف فى الأودية .

أنا أكرهكم يا بني أمى لأنكم تكرهون المجد والعظمة .
أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم .

أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لاتعلمون !! .

نحن وأنتم

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء السرّات .
نحن أبناء الكآبة ، والكآبة ظلّ إله لا يسكن في جوار القلوب
الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة والحزن كبير لا تساعه النفوس
الصغيرة . نحن نبكى ونتحب أيها الضاحكون ومن يغتسل بدموعه مرة
يظلّ نقياً إلى نهاية الدهور .

أنتم لاتعرفوننا أما نحن فنعرفكم . أنتم سائرون بسرعة مع تيار نهر
الحياة فلا تلتفتون نحونا أما نحن فجالسون على الشاطئ نراكم ونسمعكم .
أنتم لاتعون صراخنا لأن ضجيج الأيام يملأ آذانكم ، أما نحن فنسمع
أغانىكم لأن همس الليالى قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لأنكم واقفون في
النور المظلم أما أنتم فلا تروننا لأننا جالسون في الظلمة المنيرة .

نحن أبناء الكآبة . نحن الأنبياء والشعراء والموسيقيون . نحن نحوك من
خيوط قلوبنا ملابس الآلهة فنملأ بحبات صدورنا حفّات الملائكة
وأنتم — أنتم أبناء غفلات السرّات ويقظات الملاهى — أنتم تضعون
قلوبكم بين أيدي الخلو لأن أصابع الخلو لينة الملامس وترتاحون بقرب
الجهالة لأن بيت الجهالة خال من مرآة ترون فيها وجوهكم . نحن نتهد
ومع تهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير السواقي أما

أنتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرقة القيود وعويل الهاوية .

نحن نبكى ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل في كبد الصباح . أما أنتم فتبتسمون ومن جوانب أفواهكم المبتسمة تنهرق السخرية مثلما يسيل سم الأفعى على جرح الملسوع .
نحن نبكى لأننا نرى تعاسة الأرملة وشقاء اليتيم وأنتم تضحكون لأنكم لاترون غير لمعان الذهب ، نحن نبكى لأننا نسمع أنه الفقير وصراخ المظلوم وأنتم تضحكون لأنكم لاتسمعون سوى رنة الأقداح ، نحن نبكى لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله وأنتم تضحكون لأن أجسادكم تلتصق مرتاحة بالتراب .

نحن أبناء الكتابة وأنتم أبناء المسرات فهلموا نضع مآقي كآبتنا وأعمال مسراتكم أمام وجه الشمس .

أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الأجيال عن خلودنا وفنائكم ، ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار والباستيل لفظة ترددها الأثم فتباركنا وتلعنكم . أنتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء وأقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء وها قد أصبحت بابل ونينوى نظير آثار أخفاف الإبل على رمال الصحراء . أما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً وضربنا النهاوند على الأوتار فاستحضرت الأوتار أرواح المحبين الجائمة في الفضاء ، ورسمنا مريم بالخطوط والألوان

فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة .

أنتم تتبعون الملامى وأظافر الملامى مزقت ألف ألف من الشهداء فى مراسح رومية وأنطاكية ، ونحن نلاحق السكينة وأصابع السكينة نسجت الإلياذة وسيفر أيوب والثائية الكبرى . أنتم تضاجعون الشهوات وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية العار والفجور ، ونحن نعائق الوحدة وفى ظلال الوحدة تجسمت المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي . أنتم تسامرون المطاعم وأسيف المطاعم أجرت ألف نهر من الدماء ، ونحن نرافق الخيال وأيدى الخيال أنزلت المعرفة من دائرة النور الأعلى .

نحن أبناء الكآبة وأنتم أولاد المسرات ، وبين كآبتنا وسروركم عقبات صعبة لمسالك ضيقة المعابر لانتجازها خيولكم المظهمة ولا تسير عليها مركباتكم الجميلة .

نحن نشفق على صغارتكم وأنتم تكرهون عظمتنا ، وبين شفقتنا وكرهكم يقف الزمان محتاراً بنا وبكم .

نحن ندنو منكم كالأصدقاء وأنتم تهاجموننا كالأعداء ، وبين الصداقة والعداوة هوة عميقة مملوءة بالدموع والدماء .

نحن نبني لكم القصور وأنتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال القصر وظلمة القبر تسير الإنسانية بأقدام من حديد .

نحن نفرش سبلكم بالورود وأنتم تغمرون مضاجعنا بالأشواك ، وبين أوراق الوردة وأشواكها تنام الحقيقة نوماً عميقاً أبدياً .

منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن .. تغلبوننا

ساعة فتضجون فرحين كالضفادع ، ونغلبكم دهرأ ونظّل صامتين كالجبابرة . قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به وتجدفون عليه ، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من عن صليبه وسار كالجبّال يتغلب على الأجيال بالروح والحق ويملأ الأرض بمجده وجماله .

قد سمتم سقراط ورجتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلي بن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا ، وهؤلاء يحيون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية . أما أنتم فتعيشون في ذاكرة الإنسانية كجثث فوق التراب لا تجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم .

نحن أبناء الكآبة والكآبة غيوم تمطر العالم خيراً ومعرفة ، وأنتم أبناء المسرات ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبددها العناصر .

أبناء الآلهة وأحفاد القروء

ما أغرب الدهر وما أغربنا ! فقد تغير الدهر وغيرنا وسار إلى الأمام
وسيرنا ، وأسفر عن وجهه فأذهلنا وفرحنا .

كنا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فأصبحنا اليوم نصحيه ونهواه ، بل
صبرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم أسرارهِ وخفاياه .

بالأمس كنا ندب متحذرين كالأشباح المرتعشة بين أهوال الليل
وخواف النهار ، فأصبحنا اليوم نسير متحمسين نحو أُمّ الجبال حيث
تكنم العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة والرعود القاصفة .

كنا بالأمس نأكل الخبز معجوناً بالدماء ونشرب الماء ممزوجاً
بالدموع ، فصرنا اليوم نتناول المن من أيدي عرائس الصباح ونرشف
الخمر معطرة بأنفاس الربيع .

بالأمس كنا ألعبوبة في يد القضاء وكان القضاء جباراً ثملاً يتلوى بنا إلى
اليمن وإلى اليسار ، أما اليوم فقد صبحا القضاء من سكره فأصبحنا نلاعبه
فيلعب ونداعبه فيضحك ثم نقوده وراءنا فينقاد .

كنا بالأمس نحرق البخور أمام الأصنام وننحر الضحايا أمام الآلهة
الغضوبة ، أما اليوم فصرنا لانحرق بخوراً إلا لنفوسنا ولا نقدم ذبيحة لغير
ذواتنا لأن أعظم الآلهة وأبهاهم جمالا قد جعل هيكله في صدورنا .

بالأمس كنا نخضع للملوك ونلوى رقابنا أمام السلاطين ، أما اليوم
فصرنا لانحنى إلا للحق ولا نتبع غير الجمال ولا نطيع سوى المحبة .
كنا بالأمس نخشع أبصارنا أمام الكهان ونهيب رؤيا العرافين ، أما
اليوم وقد تغير الدهر وغيرنا فأصبحنا لانحدق في غير وجه الشمس ولا
نصغى إلا لنغمة البحر ولا نهتز إلا مع الزوابع .
بالأمس كنا نهدم عروش نفوسنا لنبنى من قوائمها قبوراً لأجدادنا ،
أما اليوم فقد تحولت نفوسنا مذابح مقدسة لاتدنو منها أشباح القرون
الغابرة ولا تلامسها أصابع الأموات البالية .
كنا فكراً صامتاً مختبئاً في زوايا النسيان ، فأصبحنا صوتاً صارخاً
ترتجف له أعماق القضاة .
كنا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد ، فصرنا ناراً متقدة فوق أكتاف
الأودية .

وكم سهرنا الليالى متوسدين التراب ملتحفين بالثلوج باكين على إلف
ورزق فقدناه . وكم صرفنا الأيام رابضين كنعاج لا راعى لها نقضم
أفكارنا ونلوك عواطفنا ونظل جائعين ظامئين . وكم وقفنا بين نهار زائل
ومساءات ، نائحين على شباب ذابل مشتاقين إلى من لا نعرفه
مستوحشين لأسباب نجهلها محدقين بفضاء خال مظلم ، مصغين إلى أنة
السكون والعدم .

تلك أجيال مرت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، أما اليوم وقد
صحا الفضاء وصحونا ، فصرنا نقضى الليالى البيضاء على أسرة علوية ،

مساهرين الخيال ، مسامرين الفكر ، معانقين الأميال ، تتمايل حولنا
شعلات النار فنقبض عليها بأصابع غير مرتعشة ، وتتصاعد حولنا أرواح
الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة ، ونمر بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق
قلوبنا ونسكرها بنغمة أرواحنا .

كنّا بالأمس وأصبحنا اليوم ، وهذه مشيئة الآلهة بأبناء الآلهة ، فما
هى إرادتكم يا أبناء القروء ؟

هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقت من شقوق الأرض ، أم
رفعتم أبصاركم نحو الأعالي منذ فتحت الشياطين أبصاركم ؟ أم تلفظتم
بكلمة من سفر الحق منذ قبلت أفواه الأفاعى أفواهكم ؟ أم أصغيتم هنيهة
لأغنية الحياة منذ أغلق الموت آذانكم ؟

منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتم تتقلبون كالخشرات فى
زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت وراء بلور نافذتى فوجدتكم
تسيرون فى الأزقة القذرة ، وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية
تتمسك بأقدامكم ، وأجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم
كما كنتم وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتم فى البدء .

كنّا بالأمس فأصبحنا اليوم ، وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة فما هى
سنة القروء بكم يا أبناء القروء ؟

بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك .
اسكت فالأثير المثقل بالنواح والعيول لن يحمل أغانيك وأناشيدك .
اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام
لاتقف أمام أحلامك .
اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً
يلاقى الصباح قوياً . ومن يهوى النور فالنور يهواه .
اسكت يا قلبي واسمعي متكلماً .
في الحلم رأيت شحوراً يغرد فوق فوهة بركان نائر .
ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .
ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور .
ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك .
رأيت جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت ونظرت إلى حولى
رأيت البركان هائجاً ، ولكنى لم أسمع الشحور مغرداً ولا رأيته مرفرفاً .
ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والأودية ، ساتراً بأكفانه
البيضاء أجسام الزنايق الهامدة .
ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينة الدهور ، وليس بينها من

يتأيل راقصاً ولا من يجثو مصلياً .

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .
في اليقظة رأيت الحزن والأسى فأين ذهبت أفراح الحلم ومسراته ؟
أننى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟ وكيف تتجلد
النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيتها وآمالها ؟
أصغ يا قلبي واسمعي متكلماً .

كانت نفسى بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها إلى أعماق
الأرض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية .

ولقد أزهرت نفسى فى الربيع وأثمرت فى الصيف ، ولما جاء الخريف
جمعت أثمارها فى أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق فكان
العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسرون فى سبيلهم .

ولما انقضت الخريف وتحولت تهاليله إلى الندب واللولولة نظرت فلم أر
فى أطباق سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لى ، فتناولتها وأكلتها . فألفيتها
كالعلقم ، حامضة كالخصرم . فقلت لنفسي : « ويحى لقد وضعت فى
أفواه الناس لعنة ، وفى أجوافهم عداء . فماذا ترى فعلت يانفسى
بالخللولة التى امتصتها عروقك من أحشاء الأرض ، وبالأريج الذى
تشربته قضبانك من نور الشمس ؟ » .

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسى القوية المسنة .

اقتلعتها بعروقها من التربة التى نمت فيها وترعرعت ، اقتلعتها من
ماضيها ونزعت عنها ذكرى ألف ربيع وألف خريف .
وعدت فزرعت شجرة نفسى فى مكان آخر .

(العواصف)

زرعتها فى حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر بجانبها قائلاً إن
السهر يدنيننا من النجوم . وكنت اسقيها بدمى ودموعى قائلاً إن فى الدم
نكهة ، وفى الدموع حلاوة . ولما عاد الربيع أزهرت نفسى ثانية .
وفى الصيف أثمرت نفسى . ولما جاء الخريف جمعت أثمارها الناضجة
بأطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل . فمر الناس أفراداً
وجامعات ولكن لم يمد أحد يده ليتناول منها .
فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ، لذينة
كالكوثر ، طيبة كالخمرة البابلية ، عطرة كأنفاس الياسمين . فصرخت
قائلاً : « إن الناس لا يريدون البركة فى أفواههم ولا الحق فى أجوافهم ،
لأن البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء » .
ثم عدت وجلست فى ظل شجرة نفسى المنفردة فى حقل بعيد عن
سبل الزمن .

اسكت ياقلبي حتى الصباح .
اسكت ، فالقضاء قد أتمخمت رائحة الأشلاء فلن يتشرب أنفاسك .
أصغ ياقلبي واسمعى متكلاً .
كانت بالأمس فكرتى سفينة تتقلب بين أمواج البحار وتنقل مع
الأهواء من شاطئ إلى شاطئ .
ولقد كانت سفينة فكرتى خالية إلا من سبعة أكواب طافحة بألوان
مختلفة تشابه ألوان قوس القزح بنضارتها .
وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت سأعود بسفينة

فكرتى الفارغة إلى ميناء البلد الذى ولدت فيه .

ثم أخذت أطلى جوانب سفيتى بألوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذئب الشقيق ، وأرسم على شراعها ودفنها رسوماً غريبة تجذب العين ، وتبهج البصيرة ولما انتهيت من عملى وقد ظهرت سفينة فكرتى كرؤيا نبى تطوف بين اللانهايتين ، البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدى فخرج الناس لملاقاى بالتهليل والتعظيم ، وأدخلونى المدينة ضارين الدفوف ، نافخين الزمور . فعلوا ذلك لأن خارج سفيتى كان مزخرفاً بهجاً ولم يدخل أحد جوف سفينة فكرتى .

ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار ؟

ولم يدر أحد أنى عدت بها فارغة إلى الميناء .

عند ذلك قلت فى سرى : « لقد ضللت الناس . وبسبعة أكواب من الألوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم .

وبعد عام ركبت سفينة فكرتى وأبحرت ثانية .

سرت إلى جزر الشرق فجمعت منها المر واللبان والند والصندل وأدخلتها إلى سفيتى .

وإلى جزر الجنوب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع الحجارة الكريمة .

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشى والبرقى .

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزودة والسيوف المشرقية والرماح السمهرية وسائر أنواع الأسلحة .

ملأت سفينة فكرتي بنفائس الأرض وغرائبها وعدت إلى ميناء بلدى
قائلا : سوف يمجدىنى قومى ، ولكن عن جدارة . وسيدخلونى المدينة
منشدين زميرين ولكن عن استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاى ، ودخلت شوارع بلدى
فلم يلتفت لى أحد .

ووقفت فى ساحتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض
وطرائفها فكانوا ينظرون لى والضحك ملء أفواههم والسخرية على
وجوههم ثم يتحولون عنى .

فعدت إلى الميناء كئيباً مستغرباً . ولكننى ما بحثت سفينتى حتى فطنت
لأمر كنت مشغولاً عنه بمنازع أسفارى ورغائبها . فتهتفت قائلاً : « إن
أمواج البحار قد عمت الطلاء من جوانب سفينتى فبان كهيكل من
عظام ، وعفت الأرياح والأنواء وحرارة الشمس الرسوم عن شرائعها
فظهرت كأثواب رمادية بالية .

لقد جمعت طرائف الأرض ونفائسها فى تابوت يعوم على وجه الماء
وعدت إلى قومى فنبذونى لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية .
فى تلك الساعة تركت سفينة فكرتى وذهبت إلى مدينة الأموات
وجلست بين القبور المكلسة مفكراً بأسرارها .

اسكت يا قلبى حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر
بهمس أعمالك ، وكهوف الوادى لن ترجع بصداها رنات أوتارك .
اسكت يا قلبى حتى الصباح . فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه
الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبى فتكلم إن كنت تستطيع الكلام .
هو ذا موكب الصباح يا قلبى فهل أبقي سكوت الليل فى أعماقك
أغنية تلاقى بها الصباح ؟
هو ذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير فى أطراف الوادى ، فهل
أبقى هول الليل فى جنحيك صلابة لتطير معها ؟
هو ذا الرعيان يسرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرايض فهل أبقت
لك أشباح الليل عزماً لتسير وراءها إلى المروج الخضراء ؟
هو ذا الفتيان والصبايا يمشون الهويناء نحو الكروم فهلاً نهضت ومشيت
معهن ؟ قم يا قلبى . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . وخاوف الليل
قد اضمحلت مع أحلامه السوداء .
قم يا قلبى وارفع صوتك مترغماً فمن لا يشارك الصبح بأغانيه كان من
أبناء الظلام .

المخدرات والمباضع

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون » .

« هو خيالى يكتب ليفسد أخلاق الناشئة » .

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء
جبران فى الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مباني
الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما وسكانه شياطين » .
« قهراً عما فى أسلوبه الكتابى من الجمال فهو من أعداء
الإنسانية » .

« هو فوضوى كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل
المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شئ على
نفوسهم » .

« قد قرأنا له الأجنحة المتكسرة فوجدناها السم فى
الدم » .

هذا بعض ما يقوله الناس عنى وهم مصيبون ، فأنا متطرف حتى
الجنون ، أميل إلى الهدم ميل إلى البناء ، وفى قلبى كره لما يقدره الناس
وحب لما يأبونه ، ولو كان بإمكانى استئصال عوائد البشر وعقائدهم

وتقاليدهم لما ترددت دقيقة . أما قول بعضهم إن كتاباتي « سم في دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف ، فالحقيقة العارية هي أنني لأمزج « السم » بالدسم بل أسكبه صيفاً .. غير أنني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة .

أما الذين يعتذرون عني أمام نفوسهم قائلين « هو خيالي يسبح مرفراً بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذي يدعونه « سماً » لأن معدهم الضعيفة لا تهضمه .

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ؟ إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخيانة فترتدي بملابس فصلت لغيرها .

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التي تطوف مرفرفة في الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع أقراصاً من العسل . إن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيعون سواء مأكل . وقد أفرطوا بالتهامه حتى تحولت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمد إلا إذا وضعت على الثلج .

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففي أيامنا هذه مداحون يضارعون المتنبي ، وراثون يضاهون الخنساء ، ومهنتون أكثر طلاوة من صفى الدين الحلّي .

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آبائهم وجدودهم ،
متعمقاً بدرس آثارهم وعوائدهم وتقاليدهم صارفاً أيامه ولياليه بين
مطلوبات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبيانهم وبديعهم .
ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ما قاله يديداً وابن
رشد وإفرايم السرياني ويوحنا الدمشقي ، وأن لا يتعدى بكتاباته حدود
الوعظ البليد والإرشاد السقيم وما يجئ بينهما من الحكم والآيات التي إذا
ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالأعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ،
ونفسه كالماء الفاتر المزوج بقليل من الأفيون .

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون إلى
الأمر السلبيّة المسلية الفكهة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية
المجردة التي تلسعهم وتنهبهم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام
الهائلة .

* * *

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم
وألف الألم وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بسنل
كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة ، فمن كان
خالياً منها عد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلية .

وأطباء الشرق كثيرون يلزمون مضجعه ويتأملون في شأنه ولكنهم
لا يدرونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها .

أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع متعددة الأشكال متباينة
الألوان ، وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات

عن بعضها بعضاً . وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدراً جديداً .

وأما الأسباب التي آلت إلى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الأطباء وخوفهم من تبيح الألم الذي تحدثه الأدوية الناجعة .

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية .

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلمها لأسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ، ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقوا على إيجاد السلام بين الزوجين ، فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواظ على الملفقة التي تخجلها ولا تقنعها ، ثم يستدعوا الرجل يغمروا رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التي تلين أفكاره ولا تغيرها . و

يتم الصلح — الصلح الوقتي — بين الزوجين المتنافرين بالرو .
قهرأ عن إرادتهما إلى السكنى تحت سقف واحد حتى « ييوخ »
ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والأنساء ، فيعود «
إظهار نفوره ومبته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها . غير
أوجدوا الصلح في المرة الأولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف :-
المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق .

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون
إصلاحية « ترمى إلى النهوض والانعقاد فيخطبون بشجاعة

بحماسة وينشرون « اللوائح والبرامج » ويعثون « الوفود والممثلين » ، ولكن لا يمر شهر أو شهران حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنت رئيس الجمعية أو عهدت إليه بوظيفة ، أما الجمعية « الإصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لأن أفرادها قد تخرجوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والاستسلام .

تتمرد طائفة على رئيس دينها لأمر أولية فتنتقد شخصه وتنكر أعماله وتبهرم من مآتيه ، ثم تهدده باعتناقها مذهباً آخر أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات . ولكن لا يمر ردح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعى ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة إلى شخص الرئيس والطاعة العمياء إلى نفوس المرؤوسين العقوقين ا

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوى فيقول له جاره « اسكت فالعين التى تعاند السهم تفقأ » .

يشك القروى بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله « اصمت فقد جاء فى الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم » .

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له أستاذه إن الكسالى والمتوانين يخلطون لنفوسهم أعذاراً أقبح من الذنوب » .

تتمنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة أفضل من أمها ، فالطريق التى سلكتها تسلكينها أنت أيضاً » .

يسأل الشباب مستفسراً معانى الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من

لا ينظر بعين الإيمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان .
وهكذا تمر الأيام إثر الليالي والشرق مضطجع على فراشه الناعم ،
يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلا بحكم
المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فإذا ما قام رجل وصرخ
بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج ، يفتحون أجفانهم
المطبقة بالنعاس الأبدى ثم يقولون متثائبين « ما أخشنه فتى لا ينام ولا
يدع الناس أن يناموا » ، ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان أرواحهم
« هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مباني الأجيال ويرشق
الإنسانية بالسهام السامة » .

قد سألت نفسي مرات إذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين
يأبون شرب المخدرات والمسكنات ، فكانت نفسي تجيبني بكلمات
مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يمدفون على اسمي ويتأففون من
مبادئى أيقنت بحقيقة يقظتى وعلمت أنني لست من المستسلمين إلى
الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة ، بل من أولئك المستوحدين الذين
تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والأزهار مخوفة
بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة .

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعنى الاحتشام عن ادعائها ، ولكنها ليست
بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير
أمامها فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محدقين بمعانيها
المهيبة .

وعندى أن الاحتشام في إظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء

الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب .

غداً يقرأ « الأدباء المفكرون » ما تقدم ، فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر إلى الحياة من الوجهة المظلمة فلا يرى غير الظلام ، وقد طالما وقف فينا نادباً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا » .
فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول — أنا أندب الشرق لأن الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق .

أنا أبكى على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب .
أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة الغمياء غبابة عمياء .

أنا متطرف لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق ويبقى نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه ظنون الناس وتقولاتهم .
أنا أرى الجيفة المتنتنة فتشمئز نفسى وتضطرب أحشائى ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفى يمينى كأس من الشراب وفى شمالى قطعة من الحلوى .
فإن كان هناك من يريد أن يبدل توحى بالضحك ويحول اشمئز إلى الانعطاف وتطرفى إلى الاعتدال ، فعليه أن يربنى بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومشرعاً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر إلى امراته بالعين التى يرى بها نفسه .

إن كان هناك من يريد أن يشاهدنى راقصاً ويسمعنى متطبلاً ومزمرأً فعليه أن يدعونى إلى بيت العريس لا أن يوقفنى بين المقابر .

السرجين المفضض

١

سلمان أفندى :

هو رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معكوفين ، وحذاء لامع ، يلبس الأجرة الحريرية ، ويدخن اللفائف الثمينة ، ويحمل بيده الناعمة عصاة جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويأكل فى المطاعم الكبيرة حيث يلتهم سراة القوم وأشرافهم ، ويذهب إلى المتزهات المشهورة فى مركبة فاخرة يجرها فرسان كريمان .

ولم يرث سلمان أفندى المال عن أبيه لأن أباه رحمه الله كان رجلاً فقيراً مسكيناً ، ولا جدمتاجراً فاكسب ثروة لأنه كسلان متوان يكره العمل ويظنه محطاً بمقامه . وقد سمعناه مرة يقول « إن جسدى وأخلاقى لا تساعدانى على الشغل فالشغل قد وجد لذوى الأخلاق الباردة والأجساد الخشنة » .

إذا كيف حصل سلمان أفندى على المال ، وأى ساحر حول التراب فى كفيه إلى فضة وذهب ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض ، أعلنه لنا عزرائيل ونحن

بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة أعوام تزوج سلمان أفندى من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذى اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة ، وقد كانت حينئذ السيدة فهيمة فى الخامسة والأربعين من عمرها وفى السادسة عشر من سننى عواطفها وأميلها ، وهى الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطلى وجهها بالألوان والمساحيق ولكنها لا ترى سلمان أفندى قبل نصف الليل ، ولما حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التى جمعها زوجها الأول بكده وعرق جبينه .

٢

أديب أفندى :

فتى فى السابعة والعشرين من عمره . ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قدر ويدين ملطختين بالخبر وأظافر محشوة بالأوساخ . أما ملابسه فممزقة الأطراف وعلى حواشيتها بقع من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات إهماله وانشغال باله بالأموال المعنوية والمسائل العلوية والمواضيع الإلهية ... وقد سمعناه يقول مستشهداً بأمين الجندى « إن القرية لا تنصرف إلى شيئين » أى أن الأديب لا يستطيع أن يميل إلى صناعة القلم وإلى النظافة فى وقت واحد !

أديب أفندى يتكلم كثيراً ويتكلم دائماً فهو منصرف عن كل شيء إلا الكلام ، وقد علمنا أنه صرف عامين في إحدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على أحد الأساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ الرسائل والمقالات ، ولكنه للآن لم ينشر منها شيئاً لأسباب كثيرة أهمها انحطاط الصحافة العربية وغباء القراء !

وقد انصرف أديب أفندى في الآونة الأخيرة إلى خفايا الفلسفة القديمة والحديثه فهو معجب بسقراط ونييتشى في وقت واحد ! ويميل إلى أقوال القديس أغسطينس ميله إلى كتابات فولتر وجان جاك روسو ، وقد لقيناه مرة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير ! ورأيناه مرة أخرى سائراً في جنازة وجيه والمشيوعون يمشون إلى جانبه برؤوس منخفضة وملاح مكشبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أبى النواس وغزليات الفارض !

لماذا ياترى يعيش أديب أفندى وما الغرض من صرفه الأيام والليالي بين الكتب القديمة والأوراق البالية ؟ ولماذا لا يقتنى له حماراً ويصير من عداد المكارين الأقوياء النافعين ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا بعلزبول ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم أديب أفندى قصيدة خلق في مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وأنشدها أمامه في دار حبيب بك سلوان ، ولما فرغ من تنغيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسماً « عفاك الله

يا ابني فما أبلغك شاعراً وما أذكاك أديباً . فأنا أفتخر بأمثالك بأنك ستكون من رجال الشرق الكبار .
ومن تلك الساعة إلى الآن ووالد أديب أقنطى وعمه وخاله ينظرون إليه معجبين ، ويتحدثون عنه مفاخرين قائلين « أو لم يقل المطران يوحنا شمعون إنه سيكون من رجال الشرق العظام ؟ » .

٣

فريد بك دعبس .
هو رجل يناهز الأربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ، كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يمشى متاقلاً بصدر منتفخ وعنق مستطيل ولخطواته وزن خاص يضارع بخترة جمل يقل هودجا . وعندما يتكلم بصوته الجهورى وأسلوبه الفخم تخاله — إن لم تكن تعرفه — أحد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمين بتكليف أمور العباد .

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس فى صدور المحافل وتعداد مآتى أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم . وهو مغرم بسبر أخبار الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار كنبليون وعنترة العبسى ، وله ولع خاص بالأسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلقة بترتيب على جدران منزله ولكنه لا يحسن استعمالها !

ومن أقواله الماثورة « أن الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها

للرئاسة ومنها للخدمة » ومنها « إنما الشعب حمار حرون لا يسير إلا إذا علوت ظهره » ومنها « القلم للضعفاء أما السيف فللأشداء .. » .
وما هي الأسباب التي تجعل فريد بك أن يتمجد متغطرسا ويتجبر متعجرفا ويزهو مختالا متبذخاً متبجحاً .

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أبانه لنا سطانائيل ونحن بدورنا نبينه لكم :

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بينما كان الأمير بشير الشهابي سائراً بكوكبة من رجاله بين أودية لبنان ، مرّ بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعيس جد فريد بك دعيس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترجل الأمير قائلاً لرجاله (تعالوا نرتاح في ظلال السنديانة) .

وعلم منصور دعيس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين وأخبرهم بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم ، فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعيس وقبل أطراف أذيال الأمير ثم نحر كبشاً أمامه وهتف قائلاً « هذا من خير أميرنا وولى نعمتنا » .

فسر الأمير بأريحيته وخلع عليه قائلاً « ستكون منذ الآن وصاعداً شيخاً على هذه القرية مشمولاً بنظري الخصوصى . وقد أعفيت سكان قريتك من الأموال الأميرية في هذه السنة » .

في تلك الليلة بعد أن تابع الأمير سيره اجتمع في بيت « الشيخ » منصور دعيس جميع سكان القرية ونادوا به رئيساً مطاعاً في السراء (العواصف)

والضراء — رحمهم الله جميعاً .

* * *

وللسرجين المفضض أسرار لا عداد لها تعلنها لنا الشياطين والأبالسة
في كل يوم وليلة ، وسوف نظهرها لكم قبل أن يسيرنا الدهر إلى ما وراء
الشفق الأزرق . أما الآن وقد انتصف الليل وملئت أجفاننا السهر
فاسمحوا لنا أن ننام لعل عروس الأحلام تحمل روحنا إلى عالم أنظف من
هذا العالم .

رؤيا

عندما جن الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تركت
مضجعى وسرت نحو البحر قائلاً فى نفسى « البحر لا ينام . وفى يقظة
البحر تعزية لروح لا تنام » .

بلغت الشاطئ وكان الضباب قد انحدر من أعالى الجبال وغمر تلك
النواحي مثلما يوشى النقاب الرمادى وجه الصبية الحسناء . فوقفت
محدقاً بجيوش الأمواج مصغياً إلى تهاليلها ، مفكراً بالقوى السرمدية
الكامنة وراءها . تلك القوى التى تركض مع العواصف وتثور مع
البراكين وتبتسم بشغور الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيهة التفت فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قريب
وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ، فمشيت نحوهم ببطء كأن فى
كيانهم جاذباً يستميلنى قسر إرادتى .

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن فى
المكان سحراً أبجد ما بى من العزم وأيقظ ما فى روحى من الخيال .
فى تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة . وبصوت خجلته آتياً من
أعماق البحر قال :

— « الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أثمار . والحب بغير

الجمال كأزهار بغير عطر وأثمار بغير بذور .. الحياة والحب والجمال —
ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة ، مطلقة لا تقبل التغيير ولا الانفصال .
قال هذا وجلس في مكانه .

ثم انتصب الشبح الثاني ، وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال :
— « الحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع . والتمرد بغير حق كالربيع
في الصحراء القاحلة الجرداء .. الحياة والتمرد والحق — ثلاثة أقانيم في
ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير » .

ثم انتصب الشبح الثالث ، وبصوت كقصف الرعد قال :
— « الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغير الفكر
كالروح المشوشة .. الحياة والحرية والفكر ، ثلاثة أقانيم في ذات واحدة
أزلية لا تزول ولا تضمحل » .

ثم وقف الأشباح الثلاثة وبأصوات هائلة قالوا معاً :
— « الحب وما يولده . والتمرد وما يوجدده . والحرية وما تنميه —
ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل » .

وحدث إذ ذاك سكوت مفعم بخفيف أجنحة غير منظورة وارتعاش
أجسام أثرية ، فأغمضت عيني مصغياً إلى صدى الأقوال التي سمعتها .
ولما فتحتهما ونظرت ثانية لم أر غير البحر متشحاً بدثار الضباب ،
فاقتربت من الصخرة حيث كان الأشباح الثلاثة جالسين فلم أر إلا عموداً
من البخور متصاعداً نحو السماء .

فى ظلام الليل

— كُتبت أيام المجاعة —

فى ظلام الليل ينادى بعضنا بعضاً .

فى ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخیال الموت منتصب فى وسطنا .
وأجنحته السوداء تخيم علينا . ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا . أما
عيناه الملهبتان فمحدثتان بالشفق البعيد .

فى ظلام الليل يسير الموت ونحن نسیر خلفه خائفين متحبين وليس بيننا
من يستطيع الوقوف ، وليس فينا من له أمل بالوقوف .

فى ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه ، وكلما التفت الموت إلى الوراء
يسقط منا ألف إلى جانبى الطريق ، ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ، ومن
لا يسقط يسير قسر إرادته عالماً بأنه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا .
أما الموت فيظل سائراً محدقاً بالشفق البعيد .

فى ظلام الليل ينادى الأخ أخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلنا
جائعون لاغبون متضورون . أما الموت فلا يجوع ولا يعطش فهو يلهم
أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوى .
فى الهزيع الأول من الليل ينادى الطفل أمه قائلاً « يا أماه أنا جائع »
فتجيبه الأم قائلة « اصبر قليلاً يا ولداه » .

وفي الهزيع الثاني ينادى الطفل أمه ثانية قائلاً « يا أماه أنا جائع فأعطيني خبزاً » فتجيبه « ليس لدى خبز يا ولداه » .

في الهزيع الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق ، أما الموت فيظل سائراً محدقاً بالشفق البعيد .
في الصباح يذهب الرجل إلى الحقول طالباً القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهيرة يعود إلى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين .
ولما يجيء المساء يمر الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راقدين فيضحك ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد .

في الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب إلى المدينة وفي جيبه حلوى أمه وأختيه ليتتاع بها الدقيق . وعند العصر يعود إلى قريته بلا قوت ولا حلوى فيجد أمه وابنتيها راقداً أما عيونهن فلم تزل شاخصة باللاشيء ، فيرفع ذراعيه نحو السماء ثم يهبط إلى الحضيض كطائر رماء الصياد . وفي المساء يمر الموت بقرب الفلاح وأمّه وأختيه فيجدهم راقدين فيبتسم ثم يسير محدقاً بالشفق البعيد .

في ظلام الليل ، وليس لظلام الليل نهاية ، نناديكم أيها السائرون في نور النهار فهل أنتم سامعون صراخنا ؟ .

قد بعثنا إليكم أرواح أمواتنا رسلاً فهل وعيتم ما قاله الرسل ؟ وحملنا الهواء الشرق من أنفاسنا حملاً فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة وألقى بين يديكم أحماله الثقيلة ؟ هل عرفتم ما بنا فقمتم تسعون لإنقاذنا أم وجدتم نفوسكم في سلامة وطمأنينة فقلتم « ماذا عسى يستطيع الجالسون في

النور أن يفعلوا لأبناء الظلام ، فلندع الموقى أن يدفنوا أمواتهم ولتكن مشيئة الله » .

أى ، لتكن مشيئة الله .

ولكن هلا تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم إلى ما فوق نفوسكم ليصيركم الله مشيئة له وعوناً لنا ؟ .

فى ظلام الليل ينادى بعضنا بعضاً .

فى ظلام الليل ينادى الأخ أخاه والأم ابنها والزوج زوجته والمحب حبيبته ، وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء يقف الموت هنيئة ضاحكاً منا مستهزئاً بنا ثم يسير محمداً بالشفق البعيد .

الأضراس المسوسة

كان فى فمى ضررس مسوس — وكان يحتال على تعذيبى فىسكن متربصاً ساعات النهار ويستيقظ مضطرباً فى هدوء الليل عندما يكون أطباء الأسنان نائمين والصيدلية مقفلة .

ففى يوم وقد نفذ صبرى ذهبت إلى أحد الأطباء وقلت له « ألا فانزعه ضرساً خبيثاً يحرمنى لذة الرقاد ويحول سكينه لىالى إلى الأنين والضجيج » .

فهز الطبيب رأسه قائلاً « من الغباوة أن نستأصل الضررس إذا كان بإمكاننا تطيبه » .

ثم أخذ يحفر جوانب الضررس وينظف زواياه ويتفنن بتطهيره من العلة . ولما وثق بأنه صار خالياً من السوس حشاً ثقوبه بالذهب الخالص ثم قال مفاخراً « لقد أصبح ضررسك العليل أشد وأصلب من أضراسك الصحيحة » فصدقت كلامه وملأت حفتته بالدنانير وذهبت فرحاً . ولكن لم يمر الأسبوع حتى عاد الضررس المشؤوم إلى تعذيبى وإبدال أنغام روحى بمشرجة الاحتضار وعويل الهاوية .

فذهبت إلى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم « ألا فاخلعه ضرساً مذهباً شريراً — ولا تعترض (فمن يأكل العصى لا كمن

يعدها» .

فنزح الطبيب الضرس وقد كانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنها كانت ساعة مباركة .

وقد قال لى الطبيب بعد أن استأصل الضرس وتفحصه جيداً « لقد فعلت حسناً — فالعلة قد تحكمت بأصول ضرسك هذا حتى لم يبق رجاء بشفائه . »

وقد نمت مرتاحاً فى تلك الليلة — ولم أزل فى راحة والحمد للخلع والاستئصال . فى فم الجامعة البشرية أضراس مسوسة وقد نخرتها العلة حتى بلغت عظم الفك ، غير أن الجامعة البشرية لاتستأصلها لترتاح من أوجاعها بل تكتفى بتمريرضها وتنظيف خارجها وملء ثقبها بالذهب اللماع .

وما أكثر الأطباء الذين يداوون أضراس الإنسانية بالطلاء الجميل والمواد البراقة . وما أكثر المرضى الذين يستسلمون إلى مشيئة أولئك الأطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثم يموتون بعلمهم مخدوعين . غير أن الأمة التى تعتل ثم تموت لاتبعث ثانية لتظهر للملأ أسباب الأمراض المعنوية وماهية الأدواء الاجتماعية التى تؤول بالأثم إلى الانقراض والعدم .

وفى فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قدرة ذات رائحة كريهة ، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالمينا وإلباس خارجها رقوق الذهب ولكنها لاتشفى ولن تشفى بغير الاستئصال . والأمة التى تكون

أضراسها معتلة تكون معدتها ضعيفة ، وكم أمة ذهبت شهيدة عسر الهضم .

ومن شاء أن يرى أضراس سورية المسوسة فليذهب إلى المدرسة حيث يستظهر رجال الغد ما قاله الأخفش نقلا عن سيويه ، وسيويه عن سائق الأظعان .

أو فليذهب إلى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البهلواني بالقضايا الشرعية مثلما تلعب القطرة بصيدها .

أو فليذهب إلى منازل الموسرين حيث التصنع والكذب والرياء .

أو فليذهب إلى بيوت الفقراء حيث الخوف والجبانة والجهالة .

وبعد ذلك فليذهب إلى أطباء الأسنان ذوى الأسنان ذوى الأصابع الناعمة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدرة ، الذين يصرفون الأيام بإملاء ثقوب الأضراس المسوسة وتطهير زواياها المعتلة ، وإذا أراد محادثتهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلفون الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون في النوادي والساحات ، ففى حديثهم نغمة أسمى من أناشيد حجر الرحي وأنبل من أغاني الضفادع في ليالي تموز .

ولكن إذا قال لهم « إن الأمة السورية تقضم قوت الحياة بأضراس مسوسة ، وإن كل لقمة تلوكلها تخرج بلعاب مسمم وأنه قد نتج عن ذلك مرض في أمعائها » . إذا قال هذا يجيبونه بقولهم « نعم ونحن الآن منصرفون إلى درس أحدث المساحيق وأجد المخدرات » .

وإذا قال لهم « ماقولكم بالاستئصال ؟ » يضحكون منه لأنه لم
يدرس طب الأسنان الشريف .
وإذا أعاد السؤال ثانية يتعدون عنه متضجرين قائلين في نفوسهم « ما
أكثر الخياليين في هذا العالم وما أوهى أحلامهم ! » .

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام فشعشت الأنوار في القصور والمنازل
وخرج الناس إلى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء
البشر والاستكفاء ومن بين دقائق لهاثم تنبعث رائحة المأكّل
والخمر ...

أما أنا فسرت وحيداً منفرداً مبتعداً عن الزحام والضجيج أفكر
بصاحب العيد .

أفكر بناغمة الأجيال الذي ولد فقيراً وعاش متجرداً ومات
مصلوباً ...

أفكر بالشعلة النارية التي أوقدها الروح الكلي في قرية حقيرة بسوريا ،
فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنية بعد مدنية ...

ولما بلغت الحديقة العمومية ، جلست على مقعد خشبي أنظر من
خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدهمة وأسمع عن بعد
أناشيد المعيدين السائرين في موكب اللهو والخلو ..

وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفت وإذا برجل جالس بقرني
على المقعد وفي يده عصاه يرسم بطرفها خطوطاً ملتبسة على التراب ..
فقلت في نفسي « هو مستوحّد مثلي » ثم تفرست إليه متبصراً شكله

فألفيته رغم أثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوش ذا هيبة ووقار ..
وكأنه قد شعر بأننى أنظر إليه متفحصاً شكله وملاحمه فالتفت نحوى
وقال بصوت عميق هادئ « مساء الخير » فأرجعت التحية قائلاً « أسعد
الله مساءك » .

ثم عاد يرسم الخطوط بعكازه على أديم الأرض ، وبعد هنيهة وقد
أعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلاً : « هل أنت غريب فى هذه
المدينة ؟ » .

فأجاب « أنا غريب فى هذه المدينة وأنا غريب فى كل مدينة
أخرى » .

قلت « إن الغريب فى مثل هذه المواسم يتناسى مافى الغربة من الضيم
والوحشة لما يجده فى الناس من الأُنس والانعطاف » .

فأجاب « أنا غريب فى مثل هذه الأيام أكثر منى فى غيرها » .

قال هذا ونظر إلى الفضاء الرمادى فأتسعت عيناه وارتعشت شفتاه
كأنه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطن بعيد ..

قلت « إن القوم فى هذه المواسم يعطفون على بعضهم البعض فالغنى
يذكر الفقير والقوى يرحم الضعيف » .

فأجاب « نعم وما رحمة الغنى بالفقير سوى نوع من حب الذات
وليس انعطاف القوى على الضعيف إلا شكلاً من التفوق والافتخار » .

قلت « قد تكون مضيئاً ، ولكن ماذا بهم الفقير الضعيف ما يجول فى
باطن الغنى القوى من الرغائب والأُميال ؟ . إن الجائع المسكين يحلم
بالخبز ولكنه لا يفكر بالكيفية التى يعجن بها الخبز » .

فأجاب « إن الموهوب لا يفتكر أما الواهب فيجب عليه أن يفتكر ويفتكر طويلاً » .

فأعجبت بكلامه وعدت أتأمل منظره الغريب وأثوابه القديمة .. وبعد سكونة نظرت إليه قائلاً « يلوح لى أنك فى حاجة فهلا قبلت درهماً أو درهين ؟ » .

فأجاب وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة محزنة « نعم أنا بحاجة ولكن إلى غير المال » .

قلت « وماذا تحتاج ؟ » .

فقال « أنا بحاجة إلى مأوى .. أنا بحاجة إلى مكان أسند إليه رأسى » .

قلت « خذ منى درهين واذهب إلى النزل واستأجر غرفة » .

فأجاب « قد ذهبت إلى كل نزل فى هذه المدينة فلم أجد لى مأوى ، وطرقت كل باب فلم أر لى صديقاً ، ودخلت كل مطعم فلم أعط خبزاً » .

فقلت فى نفسى : ماأغربه فتى يتكلم تارة كالفيلسوف وطوراً كالمجنون .

ولكن لم أهمس لفظة « مجنون » فى أذن روحى حتى حذى لى شاخصاً ورفع صوته عن ذى قبل وقال « نعم أنا مجنون ومن كان مثلى يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً بلا طعام » .

قلت مستدر كاستغفراً « ساع ظنوى فأنا لا أعرف من أنت وقد استغربت كلامك ، فهلا قبلت دعوتى وذهبت معى لتصرف الليلة فى منزلى ؟ » .

فأجاب « قد طرقت بابك ألف مرة ولم يفتح لى .
قلت وقد تحققت جنونه « تعال الآن واصرف الليلة فى منزلى ؟ » .
فرفع رأسه وقال « لو عرفت من أنا لما دعوتنى ؟ » .
فقلت « ومن أنت ؟ » .
قال وفى صوته هدير مياه غزيرة « أنا الثورة التى تقيم ما أقعدته الأمم .
أنا العاصفة التى تقتلع الأنصاب التى أنبتتها الأجيال . أنا الذى جاء ليلقى
فى الأرض سيفاً لاسلاماً » .
ووقف منتصباً وتعالى قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر أثر
المسامير فى كفيه : فارتميت راکعاً أمامه وصرخت قائلاً « يا يسوع
الناصرى ... » .
وسمعه يقول إذ ذاك « العالم يعيد لاسمى وللتقاليد التى حاكتها الأيام
حول اسمى . أما أنا فغريب أطوف تائهاً فى مغارب الأرض ومشارقها
وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتى » .
للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وليس لابن الإنسان أن يسند
رأسه .
ورفعت رأسى إذ ذاك ونظرت فلم أر أمامى سوى عمود من البخور
ولم أسمع سوى صوت الليل آتياً من أعماق الأبدية .

الجبابة

ليس من يكتب بالخبر كمن يكتب بدم القلب وليس السكوت الذى
يحدثه الملل كالسكوت الذى يوجد له الألم .

أما أنا فقد سكت لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء
وأنيهم إلى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة أن يسكت الضعيف
عندما تتكلم القوى الكامنة فى ضمير الوجود — تلك القوى التى لا
ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً .

نحن الآن فى زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ماتقدمه . فالأمور
التي كانت تشغل أفكارنا وأميالنا وعواطفنا قد انزوت فى الظل .
والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بآرائنا ومبادئنا قد توارت وراء
نقاب من الإهمال . أما الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت
تميس متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحل محلها
جبابة تسير كالعواصف وتمايل كالبحار وتنفس كالبراكين .

وما عسى أن يصير إليه العالم بعد أن تنتهى الجبابة من صراعها ؟ .
هل يعود القروى إلى حقله فيلقى البذور حيث زرع الموت جماجم
القتلى ؟ .

هل يقود الراعى مواشيه إلى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها

مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد الشاعر
قصائده أمام كواكب حُجبت بالدخان ، وينغم المنشد أغانيه في ليل
عانقت سكينته الأهوال ؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بالهدوء أغاني النوم وهي لا
ترتجف وجلاً مما سيجلبه الغد ؟ .

هل يلتقى الحبيب بحبيبه ويتبادلان القبل حيث التقى العدو بعدوه
وتبادلا القذائف ؟ .

وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستر بقميصه أعضائها المكلومة ؟ .
ليت شعري ! هل يعود نيسان إلى الحقول ؟ .

وماذا عسى تصير إليه بلادكم وبلادى ؟ وأى من الجبابرة يضع يده
على تلك التلال والهضبات التى أنبتنا وصيرتنا رجالاً ونساء أمام وجه
الشمس ؟ .

هل تبقى سوريا مطروحة بين مغائر الذئاب وحظائر الخنازير ، أو
ياترى تنتقل مع العاصفة إلى عرين الأسد أو ذروات النسر ؟ .
وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟ .

كلما خلوت بنفسى أطرح عليها هذه السؤالات ، غير أن النفس
كالقضاء تبضر ولا تتكلم وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهى ذات عيون
تتجلى وأقدام تتسارع ، أما لسانها فتقيل .

ومن منكم أيها الناس لم يسأل نفسه في كل يوم وليلة عن مصير
(العواصف)

الأرض وسكانها بعد أن تختمر الجبابرة من دموع الأرامل والأيتام ؟ .
أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء ، وفي عرفي أن هذه السنة تتناول
بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنقل بالأديان
والحكومات من الحسن إلى الأحسن ، انتقلها بال مخلوقات كافة من
المناسب إلى الأنسب ، فلا رجوع إلى الوراء إلا في الظاهر ولا انحطاط إلا
في السطحى .

ولسنة الارتقاء سبل متشعبة يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة
الأصول ، ومظاهر قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الأفكار المحدودة وتتمرد
عليها القلوب الضعيفة ، أما خفاياها فعادلة منيرة متمسكة بحق أسمي من
حقوق الأفراد ، محبة بغرض أعلى من مرام الجماعة ، مصغية إلى صوت
يغمر بهوله وعذوبته تهديدات المنكوبين وغصات المتوجعين .

حولى بكل مكان أقزام يرون عن بعد أشباح الجبابرة متناضلين
ويسمعون فى المنام صدى تهليلهم فيضجعون كالضفادع قائلين : قد
رجع العالم فى فطرية الوضعيه . فما بنته الأجيال بالعلم والفن قد هدمه
الإنسان الوحشى بالطمع والأنانية ، فحالنا اليوم حال سكان الكهوف
ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحين نستخدمها للهلاك ؟ .
هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم
ويحللون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التى يستخدمونها لحفظ وجودهم
الفردى فكأن الشمس لم تكن إلا لتدفقتهم ، وكأن البحر لم يوجد إلا
لغسل أرجلهم .

من أحشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من أعماق السكون المدبر
حيث تصان أسرار الكون المدبر ، قد انبثقت الجبابة كالريح وتصاعدوا
كالغيوم ثم تلاقوا كالجبال ، وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة في
الأرض لا يحلها غير الصراع .

أما البشر وكل ما في رؤوسهم من المدارك والمعارف ، وما في قلوبهم
من المحبة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والأوجاع ،
فآلات يتناولها الجبابة ويديرونها توصلها إلى غاية علوية لا بد من بلوغها .
أما الدماء التي أهرقت فسوف تجرى أنهاراً كثرية ، وأما الدموع
التي نثرت فستنبت أزهاراً زكية ، وأما الأرواح التي فاضت فسوف
تجتمع وتتألف وتتطلع من وراء الأفق الجديد صباحاً جديداً ، فيعلم
الناس بأنهم قد ابتاعوا الحق في سوق البؤس وأن من ينفق في سبيل الحق
لم يخسر .

مات أهلى

(كُتِبَتْ أَيَّامُ الْمَجَاعَةِ)

مات أهلى وأنا قيد الحياة أندب أهلى فى وحدتى وانفرادى .
مات أحبابى وقد أصبحت حياى بعدهم بعض مصابى بهم .
مات أهلى وأحبابى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ، وأنا
ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان أهلى وأحبابى جالسين على
منكبى الحياة وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس .
مات أهلى جائعين ومن لم يميت جوعاً قضى بحد السيف ، وأنا فى هذه
البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية
والمشارب الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيام
تضحك لهم .
مات أهلى أذل ميتة وأنا ههنا أعيش فى رغد وسلام ، وهذه المأساة
المستتبة على مسرح نفسى .
لو كنت جائعاً بين أهلى الجائعين مضطهداً بين قومى المضطهدين
لكانت الأيام أخف وطأة على صدرى ، والليالى أقل سواداً أمام عيني .
لأن من يشارك بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التى يولدها
الاستشهاد ، بل يفخر بنفسه لأنه يموت بريئاً مع الأبرياء .

ولكنى لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب
الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل
الطمأنينة وخمول السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا
أستطيع أن أفترخ بشيء حتى ولا بدموعى .

وماذا عسى يقدر المنفى البعيد أن يقول لأهله الجائعين .

ليت شعرى ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟ .

لو كنت سنبله من القمح نابثة في تربة بلادى لكان الطفل الجائع
يلتقطنى ويزيل بجباقي يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادى لكانت المرأة الجائعة تتناولنى
وتقضمنى طعاماً .

لو كنت طائراً في فضاء بلادى ، لكان الرجل الجائع يصطادنى
ويزيل بجسدى ظل القبر عن جسده .

ولكن ، واحرق قلباه ، لست بسنبله من القمح في سهول سوريا ، ولا
بثمرة يانعة في أودية لبنان . وهذه هى نكبتى الصامته التى تجعلنى حقيراً
أمام نفسى وأمام أشباح الليل .

هذه هى المأساة الموحجة التى تعقد لسانى وتكبل يدى ثم توقفنى بلا
عزم ولا إرادة ، ولا عمل .

* * *

يقولون لى — ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع
والدماء التى هرقت فى بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع
المتدفق ليلاً ونهاراً فى أودية الأرض وسهولها .

نعم ، ولكن نكبة بلادى نكبة خرساء — نكبة بلادى جريمة حبلت
بها رؤوس الأفاعى والشعابين — نكبة بلادى مأساة بغير أناشيد ولا
مشاهد .

لو ثار قومى على حكاهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت إن
الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظلال الاستسلام . ومن
يعتق الأبدية والسيوف فى يده كان خالداً بخلود الحق .

لو اشتركت أمتى بحرب الأمم وانقضت عن بكرة أبيها فى ساحة
القتال لقلت هى العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء
واليابسة معاً ، والموت تحت أغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعى
الشيخوخة .

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادى صدرأ وغمر التراب
أهلى وأحبائى لقلت هى النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى
البشر ، فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع
الزلازل بلادهم فانقضوا مستسلمين .

مات أهلى على الصليب .

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد
الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم .

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجناء ، ولم يكرهوا محبيهم
كالجاحدين .

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .
ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .
ماتوا لأنهم لم يكونوا مسلمين .
ماتوا جوعاً في الأرض التي تدر لبناً وعسلاً .
ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقولهم من المواشى وما
في أهرائهم من الأقوات .
ماتوا لأن الأفاعى أبناء الأفاعى قد نفثوا السموم في الفضاء الذي
كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورود والياسمين .

* * *

مات أهلى وأهلكم ، أيها السوريون ، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم
يمت منهم .
إن نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروى غليلهم إذن ماذا نفعل
لننقذهم من الجوع والشدة ؟ .
هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة
العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟
إن العاطفة التي تجعلك ، يا أخى السورى ، أن تعطى شيئاً من
حياتك لمن يكاد أن يفقد حياته ، هى هى الأمر الوحيد الذى يجعلك
حرياً بنور النهار وهدوء الليل .
وإن الدرهم الذى تضعه فى اليد الفارغة الممدودة إليك هو هو الحلقة
الذهبية التى تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية .

* * *

الأمم وذواتها

الأمة مجموع أفراد متباينى الأخلاق والمشارب والآراء تضمهم رابطة معنوية أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعم من الآراء .

وقد تكون الوحدة الدينية بعض خيوط هذه الرابطة ، غير أن الخلاف فى العقيدة لا يحل الروابط الأمية إلا إذا كانت ضعيفة واهية كما هى معنوية أقوى من الأخلاق فى البلاد الشرقية .

وقد تكون وحدة اللغة سبباً أساسياً لإيجاد هذه الرابطة ، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلم لغة واحدة مع أنها فى خلاف مستمر من حيث السياسة والإدارة والنظريات الاجتماعية .

وقد تكون الوحدة الدموية أساساً لهذه الرابطة ، ولكن فى التاريخ أمثلة عديدة نستدل منها على أن أفخاذ عنصر واحد انشقت بعضها على بعض ، وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثم الاضمحلال .

وقد تكون المصلحة المادية نولاً تحاك عليه تلك الرابطة ، ولكن شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة .

إذن ما هى تلك الرابطة الاجتماعية ؟ وما هى التربة التى تنبت فيها أنصاب الأمم ؟ .

لى رأى فى الرابطة الأمية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً ، لأن

أصوله . ونتائجه ليست من الأمور المحسوسة .

أما رأى فهو هذا :

لكل شعب ذات عامة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد ، و مع أن هذه الذات العامة تستمد كيائها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهي مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وإرادة منفردة . وكما يصعب على تحديد وتعيين الزمن الذى تتولد فيه ذات الفرد الواحد ، هكذا يصعب على تعيين وتحديد الزمن الذى تتولد فيه الذات العامة غير أننى أشعر أن الذات المصرية — مثلا — قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لا يقل عن خمسمائة سنة . ومن تلك الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية والاجتماعية . وما أقوله عن مصر يصح فى آشور وفارس واليونان ورومة والعرب وغيرها من الأمم الحديثة ، أعنى تلك التى ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة .

قلت إن للذات العامة حياة خاصة . نعم ، ولما كان لكل حى عمر محدود كان لتلك الذات العامة أجل محدود لا تتجاوزه . ومثلما يسير الكيان الفردى من الطفولة إلى الشبيبة إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموحشة بنقاب النوم ، إلى يقظة الظهر المتجلية بنور الشمس ، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس ، إلى سبات عميق .

إن الذات اليونانية قد استيقظت فى القرن العاشر قبل المسيح ومشت بعزم وجلال فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولما بلغت عهد الناصرى

كانت قد ملّت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبدية لتعانق أحلام الأبدية .

أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصى فى القرن الثالث قبل الإسلام ، ولم تتمخض بالنبى محمد حتى انتصبت كالجبار واثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف فى سبيلها . ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لاعداد لها أولها فى الهند وآخرها فى الأندلس . ولما بلغت عصارى نهارها ، وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً . وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقى خفياً فى نفسها . كما عادت الذات الرومانية فى زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس وأكملت فى البندقية وفلورنسا وميلان ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونية فى بدء الأجيال المظلمة .

وأغرب الذوات العامة فى التاريخ هى الذات الفرنساوية ، فهى قد عاشت ألفى سنة أمام وجه الشمس ولم تنزل فى شبيبة نضرة . وهى اليوم أدق فكراً وأحد نظراً وأوسع فناً وعلماً مما كانت فى أى زمن من تاريخها المجيد .

فرودان وكارير وشيتان وهوغو ورينان وساسه وسيمون ، وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر كانوا أعظم رجال العالم فناً وأكثرهم علماً وأبعدهم خيالاً — الأمر الذى يدلنا على أن لبعض الذوات العامة أعماراً أطول من الأخرى ، فالذات المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . أما الذات اليونانية فلم تعيش أكثر من ألف سنة . وقد تكون الأسباب فى

طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار الأفراد أو طولها .

وماذا يا ترى يحل بالذوات العامة بعد أن تلعب دورها على مسرح الوجود ؟ .

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها ؟ هل تضمحل أمام الأيام والليالي كأنها لم تكن مظهراً لليالي والأيام ؟

في عقيدتي أن الكيان المعنوي يتغير ولكنه لا ولن يضمحل . فهو كالكيان المادى يتحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة . أما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن . فذات الأمة العامة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقى بذورها في تربة الأرض ، أما عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود . وعندى أن العطر في الأمة أو في الزهرة هو الحقيقة المجردة — هو الجوهر المطلق . فعطر ثيب وبابل ونيوى وأثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيرى المحيط بالأرض ، بل هو موجود في أعماق أرواحنا . ونحن — أفراداً وجماعات — ورثة كل الذوات العامة التى وجدت على سطح الأرض .

غير أن ذاك الإرث العلوى لا يتخذ له صوراً محسوسة في الفرد أو الجماعات حتى تبلور الأمة التى ينتسب الأفراد والجماعات إليها ، وتصير ذاتاً لها حياة خاصة وإرادة منفردة .



همسة في سر الوجود ..

فلسفة المنطق أو معرفة الذات

في ليلة من ليالى بيروت الممطرة جلس سليم أفندى دعبس أمام منضدة فوقها أكداس من الكتب العتيقة والأوراق المتشورة يقلب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والأخرى مخرجاً من بين شفثيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفية أوحاها سقراط لتلميذه أفلاطون في « معرفة الذات » .

كان سليم أفندى يتبصر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضراً إلى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتى لم يُبق شاردة لمفكر غربي إلا ولازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقي إلا ولاحت ذاكرته ، حتى إذا ما غرقت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض فجأة ومد ذراعيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : « نعم . نعم إن معرفة الذات هي أم كل معرفة . أما أنا فعلى أن أعرف ذاتي وأعرفها تماماً ، وأعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها . على أن أزيل النقاب عن أسرار نفسي وأحمو الالتباس عن مكامن قلبي . بل على أن أبين معاني كياني المعنوي لكياني الهولي وخفايا وجودي الهولي لوجودي المعنوي .

قال هذا بحماسة غريبة وفي عينيه تتقد شعلة « محبة المعرفة » ، معرفة الذات — ثم دخل إلى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل

أرض الغرفة بسقفها ونظر محققاً بشبحه متفرساً وجهه متأملاً بشكل رأسه وخطوط قامته وإجمال هيأته .

ظل واقفاً جامداً على هذه الحالة نصف ساعة ، كأن الفكرة الأزلية قد أنزلت عليه أفكاراً هائلة بسموها تجعله بواسطتها أن يكتشف بواطن روحه ويملاً بالنور خلأيا ذاته . ثم فتح شفتيه بهدوء وقال مخاطباً نفسه .
أنا قصير القامة وهكذا كان نابليون وفكتور هوغو .

أنا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسينوزا .
أنا أصلع وهكذا كان شكسبير .

أنفى كبير ومنحن إلى جهة واحدة ، وهكذا كان سفنوزولا وفولتير وجورج واشنطن .

فى عيني سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيثشة .
فمى غليظ وشفتى السفلى ناتئة ، وهكذا كان شيشرون ولويس الرابع عشر .

عنقى غليظ ، وهكذا كان هنيال ومرفس أنطونيوس .
أذناى مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشية، وهكذا كان برونر وسرفانتى .

وجنتاى بارزتان ، وخداى ضامرتان ، وهكذا كان لاثيات ولنكلن .

ذفنى متقاهر إلى الراء ، وهكذا كان غولد سميث وزليم بت .
كتفاى متباينان فالواحد يعلو على الآخر ، وهكذا كان غمبتا وأديب إسحق .

يداي ثخينتا الكفين قصيرتا الأصابع ، وهكذا كان بليك ودانتون .
وبالإجمال جسدى ضعيف نحيل ، وهذا شأن أكثر المفكرين الذين
تتعب أجسادهم فى مرامى نفوسهم . ومن الغريب أنى لا أستطيع
الجلوس كاتبًا أو مطالعًا إلا وبجانبى إبريق القهوة ، مثلما كان يفعل
بلزاك . وفوق ذلك فى ميل إلى معاشرة الرعاع والبسطاء كتولستوى
ومكسيم غوركى . وقد يمر اليوم واليومان بدون أن أغسل وجهى
ويدي ، وهكذا كان بيتهوفن وولت وشن . وللعجب إنى أستريح لسماع
أخبار النساء وما يفعلنه فى غياب أزواجهن كبوكاشيو وريالى ، أما عطشى
إلى الخمرة فيضارع عطش نوح وأنى نواس ودى موسى ومارلو . وأما
مجامعتى للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالألوان المتنوعة ، فتقارن بهم
بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابى .

ووقف سليم أفندى دقيقة عن مخاطبة نفسه ، ثم لمس جبهته بأطراف
بنانه وزاد قائلاً : هذا أنا . هذه هى حقيقتى . فأنا مجموع صفات كان
حائزًا عليها أعظم الرجال من بدء التاريخ إلى يومنا هذا . وفتى جامع لهذه
المزايا لابد أن يفعل شيئًا عظيمًا فى هذا العالم .

« رأس الحكمة معرفة الذات . وأنا قد عرفت نفسى فى هذه الليلة ،
ومنذ الليلة سأبتدىء بالعمل العظيم الذى انتدبتنى إليه فكرة هذا العالم
بوضعها فى أعماق عناصر متعددة متباينة . رافقت عظماء البشر من نوح
إلى سقراط إلى بوكاشيو إلى أحمد فارس الشدياق . أنا لا أدرى ما هو
العمل العظيم الذى سأقوم به ولكن رجلا جمع فى شخصه الهوى وذاته
المعنوية ما أنا جامع لهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالى .. لقد

عرفت نفسي نعم . والآلهة قد عرفت نفسي فلتحى نفسي ولتعيش ذاتي
وليبقى الكون كوناً حتى تتم أعمالى » .

ومشى سليم أفندى فى تلك الغرفة ذهاباً وإياباً وسيماء البشر على
سحته القبيحة ، وهو يردد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط بقلقلة
العظام بيت أئى العلاء القائل :

لإى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
وبعد ساعة كان صاحبنا مضجعاً بملابسه المشوشة على سرير
المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحى بنغمة أدنى إلى جعجعة الطاحون
منها إلى صوت ابن آدم .

العاصفة

١

كان يوسف الفخرى فى الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً فى تلك الصومعة المنفردة القائمة على كنف وادى قاديشا فى شمال لبنان .

وقد اختلف سكان القرى المجاورة فى أمره ، فمنهم من قال « هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحب امرأة فخانته عهده فهجر الديار وطلب الخلوة توصلأ إلى السلوان » . ومنهم من قال — « هو شاعر خيالى قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدون أفكاره وينظم عواطفه » ، ومنهم من قال — « هو متصوف متعبد قد اقتنع بالدين دون الدنيا . » ومنهم من اكتفى بقوله — « هو مجنون » .

أما أنا فلم أكن من رأى هذا ولا ذاك لعلمى أن فى داخل الأرواح أسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا ييوح بها التخمين ، غير أنى كنت أتمنى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتهى محادثته . وقد حاولت مرتين التقرب إليه لأستطلع حقيقته وأستفسر مقاصده وأمانيه ، فلم أظفر منه سوى بنظرات حادة وبعض ألفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع .

(العواصف)

ففى المرة الأولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الأرز ، حيثته بأحسن
ماحضرنى من الكلام فلم يرد التحية إلا بهز رأسه ثم تحول عنى مسرعاً .
وفى المرة الثانية وجدته واقفاً فى وسط كرمة صغيرة بقرب صومعة
فدنوت منه قائلاً : « قد سمعت بالأمس أن هذه الصومعة بناها ناسك
سريانى فى القرن الرابع عشر ، فهل لك علم بذلك يا سيدى ؟ » .
فأجاب بلهجة خشنة « لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا أريد أن
أعلم » . ثم أدارلى ظهره وزاد ساخراً : « لماذا تسأل جدتك فهى أقدم
عهداً وأكثر علماً بتاريخ هذه الأودية ؟ » . فتركته مكسوفاً نادماً على
تطفلى .

وهكذا مر عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالأسرار تراود خيالى
وتتأيل مع أفكارى وأحلامى .

٢

ففى يوم من أيام الخريف وقد كنت متجولاً بين تلك التللول
والمناحدرات المجاورة لمزرعة يوسف الفخرى ، فاجأتنى العاصفة
بأهوائها وأمطارها وأخذت تتلاعب بى مثلما يتلاعب البحر الهائج
بمركب كسرت الأمواج دفته ومزقت الريح شراعه ، فتحولت نحو
الصومعة قائلاً فى نفسى — هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك ،
وستكون العاصفة عذرى وأثوابى المبللة شفيعى .
بلغت الصومعة وأنا فى حالة يرثى لها ، ولم أطرق الباب حتى ظهر

أمامى الرجل الذى طالما تشوقت إلى لقائه حاملاً بيده طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يختلج كأنه على آخر رفق من الحياة . فقلت بعد أن حبيته « اعذرني يا سيدى على محبتي إليك فى هذه الحالة ، ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنازل » .

فتفرس فى عابساً وأجاب بصوت يساوره الاستنكاف : « الكهوف كثيرة فى هذه النواحي وقد كان بإمكانك الالتجاء إليها »
قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أر مثله فى حياتى ، فعجبت لم رأى الضدين — الرأفة والخشونة فى وقت واحد وتحيرت فى أمرى . وكأنه قد علم بما يخالج ضميرى فنظر إلى نظرة استيضاح واستعلام ثم قال : « إن العاصفة لاتأكل اللحوم الحامضة ، فلم تخافها وتهرب منها ؟ » .

فأجبت : « العاصفة لاتحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل إلى الرطب البارد ، ولا أشك بأنها ستجدنى لقمة لذيدة إذا قبضت على ثانية » .

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلاً : « لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف رفيع لا تستحقه » .

فأجبت : « نعم يا سيدى ، ولقد جئت إليك هارباً من العاصفة لكى لانال ذلك الشرف الذى لا أستحقه » .

فحول وجهه محاولاً إخفاء ابتسامة ضئيلة . ثم أشار نحو مقعد خشبى بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال : « اجلس وجفف أثوابك » .
فجلست بقرب النار شاكراً ، وجلس هو قبالتى على مقعد محفور فى

الصخر وأخذ يغمس أطراف أصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخارية ويدهن بها جانح الطائر ورأسه وقال : « هذا الشحور حملته الريح فهبط على الصخور بين حي وميت » .

فقلت : « والريح قد حملتني أيضاً إلى بابك يا سيدى ، وأنا للآن لا أدري ما إذا كانت قد كسرت جانحي أو هشمت رأسي » .

فنظر إلى وجهي بشيء من الاهتمام وقال : « حبذا لو كان للإنسان بعض أطباع الطيور . حبذا لو كسرت العواصف أجنحة البشر وهشمت رؤوسهم . ولكن الإنسان مطبوع على الخوف والجبانة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى يخبئ في شقوق الأرض ومغاورها » .
فقلت وقصدي متابعة الحديث : « نعم إن للطير شرفاً ليس للإنسان ، فالإنسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليدها ابتدعها لنفسه . أما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلى المطلق الذى يسير بالأرض حول الشمس » .

فلمعت عيناه وانبسبت ملامحه كأنه وجد بى تلميذاً سريع الفهم ثم قال : « أحسنت ، أحسنت فإذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة ، وعش كالطيور في مكان بعيد خال إلا من ناموس الأرض والسماء » .
فقلت : « إني اعتقد بما أقول يا سيدى » .

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب : « الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر أما حياتهم فشبيهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم

الجبـال أما نفوسهم فتبقى هاجعة فى ظلمة الكهوف » .
قال هذا ولم يدع لى فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدد الشحرور
على جبة قديمة بقرب النافذة . ثم تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها
فى الموقدة قائلاً : « اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة أضـر
بالإنسان من كل شىء آخر . جفف أثوابك جيداً ولا تكن خجولاً » .
فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثواب الرطبة ، أما هو فوقف
فى باب الصومعة محدقاً بالفضاء الغضوب .
وبعد هنيهة سأله قائلاً : « هل جئت إلى هذه الصومعة منذ زمن
بعيد ؟ » .

فأجاب بدون أن يلتفت نحوى : « جئت إلى هذه الصومعة عندما
كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على
وجه المياه » .

فسكت قائلاً فى سرى : « ما أغرب هذا الرجل وما أصعب السبيل
إلى حقيقته . ولكن لابد من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف أصبر
حتى يتحول شموخه إلى اللين والدعة » .



وغمر الليل تلك البطاح بردائه الأسود ، ونمت العاصفة وغزرت
الأمطار حتى خيل لى أن الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة ويطهر الأرض
من أدرانها . وكأن ثورة العناصر قد ولدت فى نفس يوسف الفخرى

تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الأحيان مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره مني إلى الاستئناس بي ، فقام وأشعل شمعتين ثم وضع أمامي جرة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الأثمار المجففة ، ثم جلس قبالي وقال بلطف : « هذا كل ما عندي من الزاد فتفضل يا أخي وشاركني به »

تناولنا العشاء صامتين صاغين إلى ولولة الريح وبكاء الأمطار ، غير أنني كنت أتبصر وجهه بين اللقمة والأخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه . وبعد أن رفع المائدة تناول من جانب الموقد إبريقاً نحاسياً وصب منه قهوة صافية زكية الرائحة في فناجين ، ثم فتح علبة مفعمة بلقائف التبغ وقال بهدوء « تفضل يا أخي » .

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عيني . فنظر إليّ وكأنه قد سمعني مفكراً فابتسم هازأ رأسه ثم قال بعد أن أشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة : أنت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة في هذه الصومعة . وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وأنا لا أملك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة .

فأجبت : « نعم يا سيدي لقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما في العالم من الملذات والمسرات ، ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والأعشاب » .

فقال : « لقد كان بإمكان عباد الله وأنا بين خلقه ، لأن العبادة لا

تستلزم الوحدة والانفراد . وأنا لم أترك العالم لأجد الله لأننى كنت أجدّه
فى بيت أبى وفى كل مكان آخر ، ولكننى هجرت الناس لأن أخلاقى لا
تنطبق على أخلاقهم ، وأحلامى لا تتفق مع أحلامهم ، تركت البشر
لأننى وجدت نفسى دولاباً يدور بمئة بين دواليب تدور يساراً ، تركت
المدينة لأننى وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقتها فى ظلمة
الأرض وأغصانها تتعالى إلى ماوراء الغيوم ، أما أزهارها فمطامع وشرور
وجرائم ، وأما أثمارها فويل وشقاء وهموم ، ولقد حاول بعض المصلحين
تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين
على أمرهم » .

واتكأ إذ ذاك إلى جانب الموقد وكأنه قد وجد لذة فى تأثير كلامه
على ، فرفع صوته أكثر من ذى قبل وزاد قائلاً : — لا ، لم أطلب الوحدة
للصلاة والتنسك لأن الصلاة ، وهى أغنية القلب ، تبلغ آذان الله وإن
تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف ، وأما التنسك وهو قهر الجسد
وإماتة رغائبه ، فمسألة لا مكان لها فى دينى ، لأن الله بنى الأجسام هياكل
للأرواح ، وعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة
بالألوهية التى تحمل فيها . لا يا أخى لم أطلب الوحدة للصلاة والتقشف
بل طلبتها هارباً من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم
وضجتهم وعويلهم . طلبت الوحدة لكى لا أرى أوجه الرجال الذين
يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً. طلبت
الانفراد لكى لا ألتقى بالنساء اللواتى يسرن ممدودات الأعناق غامزات
العيون على ثغورهن ألف ابتسامة وفى أعماق قلوبهن غرض واحد .

طلبت الانفراد لكي لا أجالس ذوى « النصف معرفة » الذين يصرون
في المنام خيال العلم فيتخيلون أنهم أصبحوا من المدارك بمقام النقطة من
الدائرة ، ويرون في اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون أنهم قد امتلكوا
جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لأننى مللت مجاملة الخشن الذى يظن
اللطيف ضربات من الضعف والتساهل نوعا من الجبانة ، والترفع شكلا
من الكبرياء . طلبت الخلوة لأن نفسى تعبت من معاشرة المتمولين الذين
يظنون أن الشمس والأقمار والكواكب لا تطلع إلا من خزائهم ولا
تغيب إلا فى جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأمانى الأمم وهم
يذرون فى عبونها الغبار الذهبى . يملأون آذانهم برنين الألفاظ ، ومن
الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم مالا يطلبونه
من نفوسهم .. طلبت الوحدة والانفراد لأننى لم أحصل على شيء من يد
بشرى إلا بعد أن دفعت ثمنه من قلبى . طلبت الوحدة والانفراد لأننى
سمعت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة . ذلك البناء الدقيق الصنع
والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية .. طلبت الوحدة لأن فى
الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية
لأن فيها نور الشمس ورائحة الأزهار وأنغام السواقي . طلبت الجبال لأن
فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغاني الخريف وعزم الشتاء . جئت إلى
هذه الصومعة المنفردة لأننى أريد معرفة أسرار الأرض والدنو من عرش
الله .

وسكت متنفساً الصعداء كأنه ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقه وقد تلمعت
عيناه بأشعة غريبة سحرية .

وظهرت على وجهه أمارات الأنفة والإرادة والقوة .
ومرت بضع دقائق وأنا أنظر إليه مسروراً بظهور ما كان محجوباً عني
ثم خاطبته قائلاً : « أنت مصيب في كل ما قلته ولكن ألا ترى يا سيدى
أن بتشخيصك أمراض الاجتماع وأوصابه قد أبنت لى أنك أحد الأطباء
الماهرين ، وأنه لا يجدر بالطبيب الإعراض عن العليل قبل أن يشفى أو
يموت ؟ إن العالم بحاجة ماسة إلى أمثالك وليس من العدل أن تعتزل عن
الناس وأنت قادر على نفعهم » .

فحدق بى هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة : « منذ البدء
والأطباء يحاولون إنقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم
من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً بدون رجاء ولا أمل .
وياليت عليل الدهر يكتفى بملازمة مضجعه القذر وموانسة قروحه
المرمنة ، ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره
مرضاً ويخنقه . والأمر الذى يغيظنى ويحول الدم فى عروقى إلى نار محرقة
هو أن ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود ويغمض عينيه قائلاً
لنفسه : « لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيماً » .. لا يا أخى . ليس بين
الناس من يستطيع أن ينفع الناس ، فالخارث وإن كان حكيماً ماهراً لا
يقدر على استنبات حقله فى أيام الشتاء .

فأجبت قائلاً : « قد يمر شتاء العالم يا سيدى ، ويحى بعده ربيع بهى
جميل فتظهر الأزهار فى الحقول وترنم الجداول فى الأودية .
فقطب ما بين عينيه متهدداً وبصوت تعانقه الكآبة قال : « ليت
شعرى هل قسم الله حياة الإنسان — وهى الدهر بكامله — إلى فصول

تشابه فصول السنة بمصيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيى بالروح والحق — هل يأتي زمن يتمجد فيه الإنسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بنور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك يا ترى — هل يتم بعد أن تشبع الأرض من لحوم البشر وترتوى من دمائهم ؟ .

وانتصب إذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير إلى عالم غير هذا العالم : « تلك أحلام بعيدة وليست هذه الصومعة منزلاً للأحلام . لأن ما أعلمه يقيناً يشغل كل فسحة وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الأودية وهذه الجبال . أما ما أعلمه يقيناً فهو هذا — أنا كائن موجود ، وفي أعماق وجودي جوع وعطش ، ولى الحق أن أتناول خبز الحياة وخمرها من الآنية التي أصنعها يدي . من أجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية » .

وأخذ يمشى ذهاباً وإياباً في وسط تلك الغرفة وأنا أتأمله وأفكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صورت له الجامعة البشرية بخطوط عوجاء وألوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلاً : « إني أحترم أفكارك ومقاصدك يا سيدى ، وأحترم وحدتك وانفرادك غير أنني أعلم — والعلم مجلبة الأسف — أن هذه الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلاً موهوباً قادراً على خدمتها وإيقاظها » .

فأجاب — هازأ رأسه : « ليست هذه الأمة إلا كالأمم كافة ، فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض إلا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتد بها ، فتعاسة الأمم الشرقية هي تعاسة

الأرض بكاملها ، وليس ما تحسبه رقيقاً في الغرب سوى شبح آخر من أشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وإن قلم أظافره ، والغش يبقى غشاً وإن لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقاً إذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول إلى أمانة إذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعة إذا قاس المسافات أو وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وإن سارت بين المعامل والمعاهد . أما العبودية — العبودية للحياة ، العبودية للماضى ، العبودية للتعاليم والعوائد والأزياء ، العبودية للأسموات فستبقى عبودية وإن طلّت وجهها وغيرت ملبسها . العبودية تظل عبودية حتى وإن دعت نفسها حرية . لا يأخى ليس الغربى أرقى من الشرق ولا الشرق أحظ من الغربى ، وما الفرق بينهما إلا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً أولياً عادلاً يفرق التعاسة والعمادة والجهالة على السواء ، فلا يميز شعباً على شعب ولا يظلم طائفة على طائفة .

فقلت وقد بلغنى الاستغراب حد الالتباس : « إذا فالمدينة باطلة وكل ما فيها باطل » .

فأجاب متعجباً : « نعم باطلة هي المدينة وباطل كل شيء فيها ، فما الاختراعات والاكتشافات سوى ألأعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل والتضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والأودية والتغلب على البحار والفضاء غير أثمار غشاشة مملوءة بالدخان لارتضى العين ولا تغذى القلب ولا ترفع النفس . أما تلك الألغاز والأحاجى التى يدعونها بالمعارف والفنون فهى قيود وسلاسل ذهبية يجبرها الإنسان

مبتهجاً بلمعانها ورنين حلقاتها ، بل هي أقفاص ابتداء الإنسان بتطويق أعمدها وأسلاكها منذ القدم غير عالم بأنه لا ينتهى من صنعها إلا ويجد نفسه أسيراً مسجوناً فى داخلها .. نعم باطلة هي أعمال الإنسان ، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامى والمنازع والأمانى ، وباطل كل شيء على الأرض . وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها — ليس هناك غير شيء واحد » .

فقلت : « وما ذلك يا سيدى ؟ » .

فوقف دقيقة ساكناً ثم أغمض أعجفانه واضعاً يديه على صدره وقد أشرق وجهه وانبسبت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال : هي يقظة فى النفس . هي يقظة فى عمق أعماق النفس . « هي فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فىرى الحياة مكتنفة بالأنعام ، محاطة بالهالات ، منتصبه كبرج من النور بين الأرض واللائهية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة فى داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة فى الفضاء الواسع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل ما يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يجاريها ، متمرداً على الذين لا يفهمون أسرارها . هي يد خفية قد أزال الغشاء عن عيني وأنا فى وسط الاجتماع بين أهلى وأصحابى ومواطنى فوقت مندهلا مدهوشاً قائلاً فى نفسى : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إلى وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم ، بل لماذا أجالسهم وأحادثهم ؟ هل أنا غريب بينهم أم هم الغرباء فى ديار بنتها الحياة لى وأسلمتنى مفاتيحها .. ؟ » .

وسكت فجأة كأن الذكرى رسمت على حافظته صوراً وأشباحاً لا يريد إظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً : « هذا ما حل بى منذ أربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لأعيش فى اليقظة ، متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة » .

ومشى إذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً إلى أعماق الليل ، ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة : « هى يقظة فى أعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع إظهارها بالكلام ، ومن لم يعرفها لا ولن يدرك أسرارها » .



ومرت ساعة طويلة بمنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخرى يمشى تارة فى وسط تلك الحجرة ويقف طوراً فى بابها محدقا بالفضاء العابس . أما أنا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه ، مستظهِراً أقواله ، مفكراً بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثانى من الليل اقترب منى ونظر طويلاً إلى وجهى كأنه يريد أن يحفظ فى ذاكرته رسم الرجل الذى باح له بسر وحدته وانفراده ، ثم قال ببطء : « أنا ذاهب الآن للتجول فى العاصفة . هى عادة أتمتع بلذتها فى الخريف وفى الشتاء .. هناك إبريق القهوة واللفائف ، وإن طلبت نفسك الخمر تجدها فى الجرة . وإذا شئت النوم تجد اللحف والمساند فى تلك القرنة » .

قال هذا والتف بحجة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسماً : « أرجوك أن

توصد باب الصومعة عندما تذهب فى الصباح لأننى سأصرف الغد فى غابة الأرز » .

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلاً وقال : « إذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت فى هذه النواحي فلا تتأخر عن الالتجاء إلى الصومعة هذه . ولكننى أرجو أن تعلم نفسك حب العواصف لا الخوف منها .. مساء الخير يا أخى » .
وخرج إلى الليل مسرعاً .

ولما وقفت فى باب الصومعة لأرى وجهته كان الظلام قد أخفاه ، ولكننى بقيت بضع دقائق أسمع وقع قدميه على حصباء الوادى .



جاء الصباح وقد مرت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك الصخور والغابات متشحة بنور الشمس ، فتركت الصومعة بعد أن أقفلت بابها وفى نفسى شئ من تلك اليقظة المعنوية التى تكلم عنها يوسف الفخرى .

ولكننى لم أبلغ منازل الناس وأرى حركاتهم وأسمع أصواتهم حتى وقفت قائلاً فى سرى : « نعم إن اليقظة الروحية هى أخلق شئ بالإنسان ، بل هى الغرض من الوجود . ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والأشكال من دواعى اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على إثبات صلاحيته . قد تكون

المدينة الحاضرة عرضاً زائلاً ولكن الناموس الأبدى قد جعل الأعراض
سُلماً تنتهى درجاته بالجواهر المطلق » .
و لم اجتمع ثانية بيوسف الفخرى لأن الحياة أبعدتنى عن شمال لبنان
فى أواخر ذلك الحريف ، فجئت منفياً إلى بلاد قصية عواصفها داجنة ،
أما التنسك فيها فضرِب من الجنون .

الشیطان

كان الخورى سمعان عالماً بدقائق الأمور الروحية ، متبسّطاً بالمسائل
اللاهوتية ، متعمقاً بأسرار الخطايا العرضية والميتة ، متضلعاً بخفايا
الجعيم والمطهر والفردوس .

وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفى أرواحهم من
أمراض الإثم ، وينقذهم من حبائل الشيطان . فالشیطان كان عدو
الخورى سمعان يحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل ولا تعب .

وكان سكان القرى يكرمون الخورى سمعان ويرتاحون إلى ابتیاع
عظاته وصلواته بالفضة والذهب ، ويتسابقون إلى إهدائه أطيب ماتشره
أشجارهم وأفضل ماتنتبه حقولهم .

ففى عشية يوم من أيام الخريف ، وقد كان الخورى سمعان سائراً فى
مكان خال نحو قرية منفردة بين تلك الجبال والأودية ، سمع أنیناً موجعاً
آتياً من جانب الطريق فالتفت فإذا برجل عارى الجسم منطرح على
الحصباء ونجیع الدم يتدفق من جراح بليغة فى رأسه وصدره ، وهو يقول
مستنجداً : أنقذنى : أعنى ! أشفق على فأنا مائت ! » .

فوقف الخورى سمعان محتاراً ونظر إلى الرجل المتوجع ثم قال فى ذاته :
« هذا أحد اللصوص الأشقياء ، وأظن أنه قد حاول سلب عابرى الطريق

فغلب على أمره .. هو منازع فإذا مات وأنا بقربه اهتمت بما أنا براء منه » .

قال هذا وهمٌ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله : « لا تتركنى : أنت تعرفنى وأنا اعرفك ، أنا مائت لا محالة ! » .

فقال الخورى فى ذاته وقد اصفر وجهه وار تعشت شفتاه : « أظنه أحد المجانين الذين يتوهون فى البرية » . ثم عاد وقال لنفسه : « إن منظر جراحه يخيفنى فماذا عسى أفعل له ! .. إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يداوى الأجساد » .

ومشى الخورى بضع خطوات فصاح الجريح بصوت يذيب الجمد قائلا : « اقترب منى . اقترب فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أنت الخورى سمعان الراعى الصالح وأنا — أنا — لست بلص ولا بمجنون . اقترب منى ولا تدعننى أموت وحيداً فى هذه البرية الخالية . اقترب فأقول لك من أنا » .

فاقترب الخورى سمعان من المنازع وانحنى فوقه متفرساً ، فرأى وجهاً غريب الخطوط يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء والقباحة بالجمال ، والخبائة بالدمائة ، فترجع إلى الراء وصرخ قائلا : « من أنت ؟ » . فقال المنازع بصوت خافت : « لا تخف يا أبت فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد . أعننى على النهوض وسرى إلى الساقية القريبة واغسل جراحى بمنديلك » .

فصرخ الخورى : « قل لى من أنت ، فأنا لا أعرفك ولا أذكر بأننى رأيتك فى حياتى » .

فأجاب الجريح وحشرة الموت تعانق صوته : « أنت تعلم من أنا ،
فقد لقيتني ألف مرة وشاهدت وجهي في كل مكان . أنا أقرب المخلوقات
إليك ، بل أنا أعز عليك من حياتك » .

فصاح الخورى قائلاً : « أنت كاذب محتال ، وخلق بالمنازعين
الصدق ، فأنا لم أر وجهك في حياتي — قل من أنت وإلا تركتك تموت
مضرجاً بدمائك ! » .

فتحرك الجريح قليلاً وشخص بعيني الخورى وقد ظهرت على شفثيه
ابتسامة معنوية ، وبصوت هادئ ناعم عميق قال : « أنا الشيطان » .
فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ار تعشت له زوايا ذلك الوادى ، ثم نظر
إليه محمداً فرأى أن جسد الجريح ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيئة الأبالسة
في صورة الديونة المعلقة على جدار كنيسة القرية ، ثم صرخ مرتجفاً :
« لقد أراى الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهى ، فلتكن ملعوناً إلى أبد
الآبدى ! » .

قال الشيطان : « لا تكن متسرعاً يا أبتاه ، ولا تضيع الوقت بالكلام
الفارغ بل اقترب وضمّد جراحي قبل أن يسيل ما فى جسدى من
الحياة » .

فقال الخورى : « إن أصابعى التى ترفع الذبيحة الربانية فى كل يوم لن
تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعونا بألسنة
الدهور وشفاه الإنسانية لأنك عدو الدهر والعامل على إبادة
الإنسانية » .

فقال الشيطان متململاً : « أنت لا تدري ما تقول ولا تعلم أى ذنب

تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبرك حكايتي .. كنت اليوم سائراً وحدي في هذه الأودية المنفردة ، ولما بلغت هذا المكان التقيت بجماعة من أجلاف الملائكة فهجموا على وضربوني ضرباً مبرحاً ، ولو لم يكن مع أحدهم سيف ذو حدين لفتكت بهم جميعاً . ولكن ماذا يفعل العزل مع المسلح ؟ » .

وقف الشيطان عن الكلام هنيئاً واضعاً يده على جرح بليغ في جانبه ، ثم زاد قائلاً : « أما الملاك المسلح وأظنه ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف . ولو لم أنطرح على الأرض وأمثل دور النزع والموت لما أبقى مني عضواً بجوار عضو آخر » .

فقال الخورى بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : « ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الإنسانية من عدوها الخيث ! » .

فقال الشيطان : ليسبت عداوتى للإنسانية أشد سواداً من عداوتك لنفسك ، فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشيء ، وتجدف على اسمى في ساعة انكسارى مع أننى كنت ولم أزل سبياً لراحتك وسعادتك . أتجحد نعمتى وتنكر معروفى وأنت عاثش فى ظلال كيانى ؟ أو لم تتخذ وجودى صناعة لك واسمى دستوراً لأعمالك . هل أغناك ماضى عن حاضرى ومستقبلى ؟ هل غمت ثروتك إلى حد لا تحتمل معه الزيادة ؟ ألا تعلم أن زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدى بل يموتون جوعاً بموتى ؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالى ، وأية صناعة تحسنها إذا أبادت الأرياح اسمى ؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجولاً بين قرى هذا الجبل لتحذر الناس من حباتلى وتبعدهم عن

مصائبى وهم يتعاون مواعظك بأموالهم وغلة حقولهم ، فأى شىء يتعاون منك غداً إذا علموا أن عدوهم الشيطان قد مات ، وأنهم أصبحوا فى مأمن من حبائله ومعاقله ، وأية وظيفة يسندوها القوم لك إذا ألغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ؟ ألا تعلم وأنت اللاهوتى المدقق أن وجود الشيطان قد أوجد أعداءه الكهان ، وأن تلك العداوة القديمة هى اليد الخفية التى تنقل الفضة والذهب من جيوب المؤمنين إلى جيوب الوعاظ والمرشدين ؟ ألا تعلم وأنت العالم الخبير أنه بزوال السبب يزول المسبب ؟ إذا كيف ترضى بموتى وبموتى تفقد منزلتك وينقطع رزقك ويكف الخبز عن أفواه زوجتك وبنيك ؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدلت فى وجهه دلائل الاستعطاف بأمارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : « ألا فاسمع أيها الغبى المكابر فأريك الحقيقة التى تضم كيانى بكيانك ، وتربط وجودى بوجودك . فى أول ساعة من الزمن وقف الإنسان أمام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ للمرة الأولى قائلاً : « ما وراء الأفلاك إله عظيم يحب الخير ! » ثم أدار ظهره للنور فرأى ظله منبسطاً على أديم التراب فهتف قائلاً : « وفى أعماق الأرض شيطان رجيم يحب الشر ! » ثم سار نحو كهفه هامساً فى نفسه : « أنا بين إلهين هائلين ، إله أتنمى إليه ، وإله أحاربه . » ومرت العصور إثر العصور والإنسان بين قوتين مطلقتين ، قوة تصعد بروحه إلى العلاء فيباركها ، وقوة تهبط بجسده إلى الظلمة فيلعنها . غير أنه لم يكن يدرى معانى البركة ولا مبائى اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها . ولما بلغ الإنسان فجر المدنية وهى الألفة البشرية

ظهرت العائلة ثم القبيلة ، فتفرقت الأعمال بتفرق الميول ، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع ، فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الأرض ، وآخرون ببناء المآوى ، وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بصهر المعادن . فى ذلك العصر البعيد ظهرت الكهانة فى الأرض وهى الحرفة الأولى التى ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع طبيعى إليها .

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثم قهقه ضاحكا بصوت ار تعشت له تلك الأودية الخالية .. وكأن الضحك قد أوسع فوهات كلومه فأسند خاصرته بيده متوجعا ، ثم شخص بالخورى سمعان وزاد قائلا : « فى ذلك العهد ظهرت الكهانة فى الأرض . وإليك يا أخى كيفية ظهورها ، كان فى القبيلة الأولى رجل يدعى « لاويص » ولا أدرى لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب — وكان لاويص هذا رجلا ذكيا ، ولكنه كان بطالا متوانيا يكره حراثة الأرض وبناء المآوى بكرهه رعاية المواشى وصيد الوحوش ، بل كان يكره كل عمل يستلزم السواعد أو الحركة الجسدية . ولما كان الرزق فى ذلك العهد لا يأتى إلا بالعمل كان لاويص يبيت أكثر لياليه خاوى الجوف فارغه . ففى ليلة من ليالى الصيف وأفراد تلك القبيلة ملتشون حول كوخ زعيمهم يتحدثون بما فى يومهم ويترقبون النعاس ، انتصب أحدهم فجأة وأشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلا : « انظروا نحو إله الليل فقد شحب وجهه واضمحل بهاؤه وتحول إلى حجر أسود معلقاً بقبة السماء . فشخص القوم بالقمر ثم ضجوا صارخين ، متهيئين ، مرتعشين ، خائفين ، كأن أيدى الظلام قد قبضت على قلوبهم

لأنهم رأوا إله ليا ليهم يتحول ببطء إلى كرة قائمة وقد تغير لذلك وجه الأرض وانحجبت البطاح والأودية وراء نقاب أسود . فتقدم إذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرات عديدة في سابق حياته ، فوقف في وسط الجماعة رافعاً ذراعيه وبصوت أودعه كل مافي ذكائه من التصنع والاحتيال صاح قائلاً : « اسجدوا وصلوا مبتهلين وغفروا وجوهكم بالتراب ، فالله الشر المظلم يصارع إله الليل المنير ، فإذا غلبه متنا وإذا غلب بقينا عائشين . اسجدوا وصلوا وغفروا وجوهكم بالتراب بل أغمضوا أجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء ، لأن من يشاهد صراع إله النور وإله الشر يفقد بصره ورشده ، ويظل مجنوناً وأعمى إلى نهاية أيامه . خروا راکعين وساعدوا بقلوبكم إله النور على عدوه » .

وظل لاويص يتكلم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله ألفاظاً جديدة غريبة ، مردداً كلمات ماسمعوها قبل تلك الليلة . حتى إذا مامر نصف ساعة وقد عاد القمر إلى سابق كماله وجلاله رفع لاويص صوته عن ذى قبل وقال بلهجة تعانقها رنة الغبطة والسرور : « قفوا الآن وانظروا ، فقد تغلب إله الليل على عدوه الشرير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم . واعلموا أنكم بركو عكم وابتها لكم قد نصرتموه وسررتموه ، ولذلك ترونه الآن أبهى نوراً وأشد لمعاناً » .

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فإذا به قد عاد ساطعاً منيراً ، فتحول خوفهم إلى طمأنينة واضطرابهم إلى مسرة وأخذوا يقفزون راقصين ويصرخون مهللين ، ويضربون بنبايتهم صفائح الحديد والنحاس

مفعمين خلایا ذلك الوادی بعویلهم وضجيج لهجتهم .
فی تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاویص وقال له : « لقد أتيت فی
هذه الليلة بما لم یأت به بشری قبلك ، وعلمت من أسرار الحياة ما لا یعلمه
بیننا سواک . فافرح وابتهج لأنک ستكون من الآن وصاعداً صاحب
المقام الأول من بعدی فی هذه القبيلة . فأنا أشد الرجال بطشاً وأقواهم
ساعداً ، وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة ، بل أنت الوسيط
بینی وبين الآلهة تبغنی مشيئتهم وتبین لی أعمالهم وأسرارهم وتعلمنی ما
يجب أن أفعله لأكون حاصلاً علی رضائهم ومحبتهم » .
فأجاب لاویص : « کل ما یقوله لی الآلهة فی الحلم أقوله فی البقظة ،
وما أراه من مآتهم أظهره لك ، فأنا الوسيط بینک وبين الآلهة » .
فسر الزعيم ووهب لاویص فرسين وسبعة عجول وسبعین كبشاً
وسبعین شاة وقال له : « سوف ینى لك رجال القبيلة بیتاً یمثل بیتى ،
وسیهدونک فی نهاية کل موسم قسماً من غلة الأرض وأثمارها فتعيش
سیداً مطاعاً مكرماً » .
وانتصب إذ ذاك لاویص للانصراف ، فأوقفه الزعيم وسأله قائلاً :
« ولكن من هو هذا الإله الذى تدعوه بإله الشر ؟ من هو هذا الإله الذى
یحسر أن یصارع إله الليل البهی . إننا لم نسمع به قط ولا علمنا
بوجوده ؟ » .

ففرک لاویص جبهته وأجاب قائلاً : « اعلم یا سیدی أنه فی قديم
الزمان وذلك قبل ظهور الإنسان کان جميع الآلهة یعيشون بسلام ومودة
فی مکان قصی وراء الحجر . وکان إله الآلهة ، وهو والدهم یعلم ما لا

يعلمونه ويفعل مالا يستطيع أحدهم أن يفعله ، ويحفظ لنفسه بعض الأسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الأزلية . ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر تمردت روح « بعطار » وهو يكره الإله الأعظم فوقف أمام أبيه وقال : « لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا أسرار الأكوان والנוاميس والدهور . أو لسنا أبناءك وبناتك ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟ » .

فغضب إله الآلهة وأجاب : « سوف أحفظ لنفسى القوة الأولية والسلطة المطلقة والأسرار الأساسية إلى أبد الدهر ، فأنا البدء وأنا النهاية .

فقال بعطار : « إن لم تقاسمنى قوتك وجبروتك تمردت أنا وأبنائى وأحفادى على قوتك وجبروتك » .

فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه وقد امتشق المجرة سيفاً وقبض على الشمس ترساً وبصوت ار تعشت له جوانب العالم صرخ قائلاً : « ألا فاهبط أيها المتمرد الشرير إلى العالم الأدنى حيث الظلمة والشقاء ، وابق هناك منفيّاً شريداً تائهاً حتى تنقلب الشمس رماداً وتتحول الكواكب هباءً منثوراً » .

فى تلك الساعة هبط بعطار من مقر الآلهة إلى العالم الأدنى حيث تقيم الأرواح الخبيثة . وقد أقسم بسر خلوده أنه سيصرف الدهور محارباً والده وإخوته واضعاً الأشرار لكل محب لولده أو مرید لإخوانه .

فقال الزعيم وقد تقلصت جبهته واصفر وجهه : « إذن فاسم إله الشر بعطار ؟ » .

فأجاب لاويص : « كان اسمه بعطار إذ كان في مقر الآلهة ، ولكنه قد اتخذ له بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى : « بعزبول وإبليس وسنطائيل وبليال وزميال وأهريمان وماره وأبدون والشیطان — وأشهرها الشیطان » .

فردد الزعيم لفظة الشیطان مرات بصوت مرتعش يشابه حفيف الأغصان اليابسة لمرور الهواء ثم قال : « ولماذا يا ترى يكره الشیطان البشر بكرهه الآلهة ؟ » .

فأجاب لاويص : « إن الشیطان يكره البشر ويعمل على إبادتهم لأنهم من نسل إخوانه وأخواته » .

فقال الزعيم محتاراً : « إذأ فالشیطان هو عم البشر وخالهم » .

فأجاب لاويص وقال بلهجة لاتخلو من التشويش والالتباس : « نعم يا سيدى ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم الحقود ، يملأ أيامهم بالنعاسة ولياليهم بالأحلام الخيفة . فهو القوة التى تحول العاصفة نحو أكواخهم ، وتحرق بالقيظ مزارعهم ، وتقرض بالأوبئة مواشيهم ، وتلامس بالأمراض أجسادهم . هو إله قوى شرير خبيث يضحك لشقائقنا ويكتئب لأفراحنا ، فعلينا أن نتفحص أطباعه لتتقى شره ، وندرس أخلاقه لتبتعد عن سبيل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه إلى نبوته وهمس قائلاً : « قد عرفت الآن ما كان خافياً عنى من أسرار تلك القوة الغريبة التى تحول العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشيها . وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الآن قيطوبونك يا لاويص لأنك أنت لهم خفايا عدوهم القوى وعلمتهم كيف

يتقون حبائله » .

وانصرف لاويص من أمام زعيم القبيلة وذهب إلى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشواناً بخمرة خياله . أما الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقبلون على مرأقد محاطة بالأشباح المخيفة والأحلام المزعجة .

ووقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخورى سمعان يحدق فيه وفى عينيه جمود الحيرة والاستغراب ، وعلى شفثيه ابتسامة الموت .

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلاً : « كذا ظهرت الكهانة فى الأرض ، وهكذا كان وجودى سبباً لظهورها ، وقد كان لاويص أول من اتخذ عداوى صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة أبنائه وأحفاده فنمت وتدرجت حتى صارت فناً دقيقاً مقدساً لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمرة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . ففى بابل كان الناس يسجدون سبع مرات أمام الكاهن الذى يحاربنى بتعازيمه ، وفى نينوى كانوا ينظرون إلى الرجل الذى يدعى معرفة أسرارى وخفاياى كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر ، وفى ثيب كانوا يلقبون من يصارعنى بابن الشمس والقمر ، وفى بابلس وأفسس وأنطاكية كانوا يضعون أبناءهم وبناتهم لإرضاء لخصمى ، وفى أورشليم ورومة كانوا يضعون أرواحهم فى قبضة من يتفنن فى كرهى وإبعادى فى كل مدينة ظهرت أمام وجه الشمس . كان اسمى محوراً لدوائر الدين والعلم والفلسفة ، فالهياكل لم تقم إلا فى ظلالى ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهرى ، والقصور والبروج لم ترتفع إلا برفعة منزلتى . فأنا العزم الذى يولد العزم فى البشر ، وأنا الفكرة التى

تستنبت الحيلة فى الأفكار ، وأنا اليد التى حركت أيدى الناس . أنا الشيطان الأزلى الأبدى : أنا الشيطان الذى يحاربہ الناس ليطلوا عائشين . فإذا كفوا عن منازلتي يوقف الخمول أفكارهم ويميت الكسل أرواحهم وتفنئ الراحة أجسادهم . أنا الشيطان الأزلى الأبدى ، أنا عاصفة هوجاء خرساء أهب فى أدمغة الرجال وصدور النساء وأجرف أمياهم إلى الأديرة والصوامع ليمجدونى بخوفهم منى ، أو إلى منازل البغى والخلاعة ليفرحونى باستسلامهم إلى مشيئتي . فالراهب الذى يصلى فى سكنة الليل لكى أبتعد عن مضجعه هو كالمسمومة التى تنادىنى لكى أقرب من مضجعه . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا بانى الأديرة والصوامع على أسس الخوف ، وأنا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أسس الشهوة واللذة . فإن زال كيانى زال الخوف واللذة من العالم . وبزوالهما تضمحل الميول والأمانى فى القلب البشرى فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقيثارة مقطعة الأوتار مكسرة الجوانب . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا موحى الكذب والتميمة والاعتياب والغش والسخرية ، فإذا انقرضت هذه العناصر فى العالم أصبحت الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه سوى أشواك الفضيلة . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا أبو الخطيئة وأمها ، فإذا مازالت الخطيئة زال محاربها وزلت أنت أيضاً وزال أبناؤك وأحفادك وزملائك ورصفائك . أنا أبو الخطيئة وأمها ، فهل تريد أن تموت الخطيئة بموتى ؟ هل تريد أن تقف الحركة البشرية بوقوف نبضات قلبى ؟ هل تريد أن تمحو السبب لتمحى المسيبات ؟ أنا هو السبب الوضعى فهل تريد أن أموت فى هذه البرية الخالية . أجبنى أيها

اللاهوتى . هل تريد أن تنتهى العلاقة الأولية الكائنة بينك وبينى ؟ .
وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه إلى الأمام وتهد طويلا ، فظهر
بلونه الرمادى المائل إلى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصرية التى أبقاها
الدهر مطروحة على ضفاف النيل . ثم حدى بوجه الخورى سمعان بعينين
مشعشتين كالمسارج وقال : « لقد أنهكنى الكلام وكان الأخرى بى وأنا
جريح منازع أن لا أطيل معك الحديث . ومن العجيب أنى قد استرسلت
بإظهار حقيقة أنت أدرى بها منى ، وبيان أمور هى أدنى إلى صالحك منها
إلى صالحى ، أما الآن فلك أن تفعل ما تشاء . لك أن تحملنى على ظهرك
وتذهب بى إلى منزلك لتداوى جراحى ، أو أن تتركنى فى هذا المكان
لأنزع وأموت » .

وكان الشيطان يتكلم والخورى سمعان يرتعش ويفرك يداً بيد ،
وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال أنا أعرف الآن ما لم أكن أعرفه منذ
ساعة ، فساح غباوتى . أنا أعلم بأنك موجود فى العالم لكى تجرب
والتجربة هى مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية . بل هى
ميزان يستخدمه الله عز وجل ليدرك ثقل الأرواح أو خفتها . أنا أعلم
الآن إذا مت تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التى تجعل
الإنسان أن يكون متحذراً ، بل يزول السبب الذى يقود الناس إلى
الصلاة والصوم والعبادة . يجب أن تحيا لأنك إن قضيت وعرف الناس
يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثم يتمرغون بالإثم ، من أجل
ذلك يجب أن تحيا ، لأن بحياتك خلاص الجنس البشرى من الرذيلة . أما
أنا فسوف أضحي كرهى لك على مذبح محبتي للجنس البشرى .

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثم قال : ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب ، وما أعمق معارفك بالأمور اللاهوتية ، فها قد أوجدت بقوة إدراكك سبباً لوجودى لم أكن أعرفه من قبل . والآن وقد فهم كل منا الأسباب الوضعية واللاهوتية التى أوجدتنا فى البدء وتوجد الآن ، يجب أن نترك هذا المكان . اقترب يا أخى ! تعال واحملنى إلى بيتك فأنا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليل البطاح بعد أن أهرقتُ نصف دمى على حصباء هذا الوادى . فاقترب الخورى سمعان من الشيطان وقد شمر عن ساعديه وشكل أطراف عباءته بحزامه ، ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق .

بين تلك الأودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقاب الليل ، سار الخورى سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت هيكل عار وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة من كلومه .

الصلبان

المكان : منزل يوسف مسرة في بيروت .
الزمان : ليلة من ليالى الخريف سنة ١٩٠١ .

الأشخاص :

بولس الصلبان : موسيقى وأديب .
يوسف مسرة : كاتب وأديب .
الآنسة هيلانة مسرة : شقيقة يوسف .
سليم معوض : شاعر وعواد .
خليل بك تامر : موظف في الحكومة .
يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والأوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة .
خليل بك (مخاطباً يوسف مسرة) : قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها على الأخلاق ، وقد أعجبتني كثيراً . ولولا صبغتها الإفرنجية لكانت خير ما كتب في الموضوع . أنا يا مسرة أفندى من الذين يرون أن تأثير الآداب الغربية على لغتنا من الأمور المضرة .
يوسف مسرة (مبتسماً) : قد يكون الحق معك يا صديقي ، ولكن

بارتدائك الملابس الإفريقية ، وبتناولك الطعام بآنية إفريقية ، وبجلوسك على مقاعد إفريقية ، عارضت ذاتك بذاتك . وفوق كل ذلك أنت أكثر ميلا إلى مطالعة الكتب الإفريقية منك إلى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك : ليس لهذه الأمور السطحية من علاقة بالآداب والفنون . يوسف مسرة : نعم هناك علاقة حيوية وضعية . وإذا تعمقت قليلا في الموضوع تجد أن الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية ، بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك : أنا شرقي وسأبقى شرقياً إلى آخر حياتي وقهراً عن بعض مظاهري الأوروبية ، فأنا أرجو أن تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الأجنبية .

يوسف مسرة : إذا أنت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك : وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة : إن الأمم المسنة التي لا تكتسب مما تثمره الأمم الحديثة تموت أدبياً وتنقرض معنوياً .

خليل بك : إن كلامك هذا يحتاج إلى برهان .

يوسف مسرة : لدى ألف برهان وبرهان .

(في هذه الدقيقة يدخل بولس الصليبان وسليم معوض فيقف الحاضرون لهما احتراماً) .

يوسف مسرة : أهلا وسهلا بالإخوان (مخاطباً الصليبان) أهلا وسهلا ببيل سوريا .

(الآنسة هيلانة تنظر إلى الصليبان وقد توردت وجتها قليلا

وظهرت على محياها أمارات السرور) .
سليم معوض : بالله عليك يا يوسف أن لا تقول كلمة حسنة لبولس .
يوسف مسرة : ولماذا ؟

سليم معوض (بين الجد والمزاح) : لأنه لا يستحق التكريم ولا
المدح ولا الإطراء . لأنه ذو أطوار وأخلاق غريبة . لأنه مجنون .
بولس الصلبان (مخاطباً معوض) : هل أحضرتك برفقتي إلى هذا
المنزل لتبين عيوني وتشرح أخلاقي ؟

الآنسة هيلانة : ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم أفندي
عيوباً جديدة في أخلاق بولس ؟

سليم معوض : إن عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن
وتتحول عظامه إلى تراب .

يوسف مسرة : أخبرنا . ماذا جرى ؟ أخبرونا بالحكاية من أولها إلى
آخرها .

سليم معوض (مخاطباً الصلبان) : هل تسمح لي أن أتكلم عن
جرائمك يا بولس ، أم تريد أن تعترف أنت بها ؟ .

بولس الصلبان : أريد أن تبقى صامتاً كالقبرة هاجعاً كقلب
العجوز .

سليم معوض : إذا فسوف أتكلم .
الصلبان : يظهر لي أنك تريد أن تنقص عيشي في هذه السهرة .
سليم معوض : لا بل أريد أن أعرض قصتك أمام هؤلاء الأصحاب
لينظروا في أمرك .

الآنسة هيلانة (مخاطبة معوض) : تكلم وأسمعنا ما جرى !
(للصلبان) قد تكون الجريمة التى يريد سليم أن يظهرها إحدى
فضائلك .

الصلبان : لم أقترف جريمة كما أننى لم أفعل فضيلة . أما المسألة التى
يشوق صاحبنا إلى إظهارها فهى لا تستحق الذكر ، وفوق كل ذلك فأنا
لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بحديثى .

الآنسة هيلانة : حسناً إذاً فلنسمع الخبر !

سليم معوض (يشعل لفافة ويجلس بقرب يوسف مسرة) : قد سمعتم
طبعاً يا سادتى بزواج ابن جلال باشا بوقد عرفتم أن والد العريس قد أقام ليلة
أمس حفلة طرب دعا إليها وجهاء المدينة وكبارها . (مشيراً إلى بولس)
وقد دعا هذا الشرير ودعيت أنا أيضاً ، والسبب فى ذلك أن الناس
يحسبوننى ظلاً لبولس أسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم ، ولأنه أدامه
الله وأبقاه ، لا يحب الإنشاد إلا على نقرات عودى . بلغنا منزل جلال باشا
متأخرين ، وبولسنا كالملوك لا يجىء إلا متأخراً فوجدنا هناك الوالى
والمطران ، بل وجدنا هناك الحسنة الفاضلة والأديب والشاعر والمثرى
والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون إلى
بولس كأنه ملاك هبط من السماء ، أما السيدات فأخذن يقدمن إليه
كؤوس الخمر وصحف النقل وطاقات الأزهار مثلما كانت تفعل نساء
أثينا عند رجوع أحد الأبطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام أن
بولسنا كان فى بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء . أخذت عودى
وضربت أولاً وثانياً وثالثاً ففتح بولس شفتيه المقدستين وأنشد .. بيتاً

(العواصف)

واحداً من قصيدة ابن الفارض :

غيرى على السلوان قادر وسواى فى العشاق غادر
فأصغى القوم وتناولت أعناقهم كأن الموصلى قد جاء من وراء
حجب الأبدية ليهمس فى آذانهم أنغاماً سحرية علوية . وبعد ذلك سكت
بولس فظن الحاضرون أنه سيعود إلى الإنشاد بعد أن يشرب كأساً أخرى
من العرق ، ولكن بولس ظل ساكناً .

بولس الصليبان (بلهجة جدية) : أرجوك أن تقف عند هذا الحد فأنا
لا أقدر أن أسمع هذا الحديث البليد ، وأنا لا أشك بأن أصحابنا لا يجدون
لذة بهذه الثروة الخالية من المعنى .

يوسف مسرة : بحقك دعنا أن نسمع البقية .

بولس الصليبان (ينهض من مكانه قائماً) : الظاهر أنكم تفضلون
هذا الحديث البارد على وجودى بينكم — أودعكم ! .

الآنسة هيلانة (تنظر إلى بولس نظرة معنوية) : اجلس يا بولس
ومهما كان الخبر فنحن معك .

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلد) .

سليم معوض (متابعاً حديثه) : قلت إن بولس المعطر المعظم قد
أنشد بيتاً — بيتاً واحداً من قصيدة الفارض وسكت . أعنى أنه أذاق
أولئك الجلياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر
آنيتهما وكؤوسها ، ثم جلس ساكناً جلوس أى الهول على رمال النيل .
وقامت السيدات الواحدة بعد الأخرى يستعطفنه بأرق الكلام
لينشد أغنية أخرى فكان يعتذر لهن بقوله : (أنا مرشح .. أشعر بألم فى

حنجرتي) . ثم قام الوجهاء والأغنياء يرجونه ويتذللون أمامه فلم يحن ولم يلن بل بقى جامداً قاسياً متمنعاً كأن الله قد أبدل قلبه بحجر من الصوان ، وحول الأنعام في نفسه إلى الغنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حد الألم ناداه جلال باشا إلى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلاً : « أنت تستطيع يا بولس أفندى أن تختم حفلتنا بالسروور أو بالأكدار ، لذلك أرجوك أن تقبل منى هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعورى نحوك فلا تحيب آمالى وآمال الحاضرين بك » .

عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير إلى مقعد بجانبه قائلاً بلهجة الملوك الفاتحين : « أنت تهيننى يا جلال باشا بل أنت تحتقرنى ، فأنا لم أجيء إلى منزلك لكى أنشد وأغنى وأبيع أنفاسى بالمال ، بل جئت كأحد المهنيين » .

بعد هذا فقد جلال باشا صبره وتجلده وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحساس أن يخرج من المنزل لاعناً مجدفاً . أما أنا — أنا المسكين فقد تناولت عودى وتبعت بولس تاركا ورأى الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيبة والمآكل الشهية . نعم قد ضحيت كل ذلك لكى لا أفقد صداقة هذا المتصلب المتعنت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا البعليم وهو للآن لم يشكرنى ولم يمدح بسالتى ولم يعترف بمودتى وولائى .

يوسف مسرة (ضاحكا) : هذه بالحقيقة حكاية لذينة حرية أن تكتب بالإبر على آماق البصر .

سليم معوض : لم أصل للآن إلى نهاية الحكاية.. أما اللذة ففي النهاية تلك النهاية الشيطانية التي لا يحلم بمثلها أهرمان الفرس ولا سيفا الهنود . الصلبان (مخاطباً الآنسة هيلانة) : بقيت هنا إكراماً لك ، والآن أرجوك أن تطلبى من هذا الضفدع أن يقف عند هذا الحد . هيلانة : دعه يتكلم يا بولس أو مهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سليم معوض (يشعل لفاقة ثانية ويتابع الحديث) : قلت إننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدف على اسم الأغنياء والوجهاء ، وأنا أجدف على اسمه في سرى . وبعد ذلك هل تظنون أنه ذهب كل منا إلى منزله ؟ هل تظنون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا !! تعلمون أن بيت حبيب سعادة محاذ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة . وأنتم تعلمون أن حبيب سعادة من عشاق المدام والأنغام والأحلام ، ومن يعبدون هذا البعليم (مشيراً إلى بولس) . فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة في منتصف الشارع فاركا جيبتيه كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ، ثم مشى فجأة نحو منزل حبيب سعادة وقرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتشاءب . ولكنه عندما رأى وجه بولس ورآنى حاملا العود تحت إبطى تغيرت سحته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت أمامه وصرخ مسروراً مؤهلاً قائلاً : « ما أتى بكم في هذه الساعة المقدسة ؟ » فأجاب بولس قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك » . فقال حبيب « هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم

إلى هذا المنزل الحقير ؟؟ » فأجاب بولس : « ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والأنشيد ، من أجل ذلك جئنا إليك فهات قنينة العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام » . الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كأساً أو كأسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ، ثم ناولني العود وقال آمراً « هذه عصاك يا موسى فحوّلها إلى أفعى ومرها أن تبتلع جميع أفاعى مصر . اضرب النهوند واضرب طويلاً واضرب جميعاً . فتناولت العود وليس على العبد إلا الطاعة ، وضربت النهوند فحول بولس وجهه نحو منزل جلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال .

(هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيمياء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جدية) .

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . أعرفه منذ كنا صبيين في المدرسة ولقد سمعته منشداً في حالتي الفرح والشفاء . سمعته ينوح كالشكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته يهمس في سكونية الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها وسمعته بين أودية لبنان وأجراس الكنائس البعيدة تملأ الفضاء سحراً وهيبه . نعم لقد سمعته ألف مرة ومرة ، وكنت أتوهم أنني أعرف حركات روحه وسكناتها . ولكننى في ليلة أمس لما حول وجهه نحو منزل جلال باشا وأغمض عينيه وأنشد :

كل يوم أشكو من غرام قلبى وكلما أشكو يزيد الغرام
عندما أنشد هذا الدور متلاعباً بمقاطيعه مثلما يتلاعب الهواء بأوراق
الخريف ، قلت فى نفسى لا — ما عرفت فى الماضى من روح بولس إلا

القشور ، أما الآن فقد بلغت اللباب . لم أسمع في الماضي غير لسان بولس منشداً ، أما الآن فأني أسمع قلبه وروحه . وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرج من نشيد إلى نشيد ، حتى خيل لي أن في الفضاء طغمة من أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات الماضي البعيد ، ناشرة ماطوته الليالي من أمانى البشر وأحلامهم . نعم يا سادتي (مشيراً إلى بولس) إن هذا الرجل قد صعد ليلة أمس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ، ومن العجائب أنه لم يهبط على الأرض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع أعداءه تحت موطىء قدميه كما جاء في المزامير ! أما ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعادة حتى تراحموا في النوفذ وجلسوا نساء ورجالا يتأوهون بعد كل مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم إلى الحديقة ووقفوا تحت الأشجار مغوطين ، متعذرين مصغين مختارين في أمر هذا البعليم الذي ينكهم ويهينهم ، وفي الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية . وقد كان يناديه البعض مستعظفاً مترجياً والبعض متوعداً مجدفاً ، وقد علمت من أحد المدعوين أن جلال باشا كان يزأر كالأسد متنقلاً من غرفة إلى غرفة لاعناً الصلبان ، غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجوا إلى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بأيديهم . هذا ما جرى ليلة أمس فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟ ما رأيكم بأطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة ؟

خليل بك : هذه حادثة عجيبة ! أما رأيي فيها فهو هذا — أنا من المعجبين بمواهب بولس أفندي ، ومع كل احترامي له أقول إنه أخطأ ليلة

أمس فقد كان بإمكانه أن ينشد في بيت جلال باشا كما أنشد في بيت حبيب سعادة ، ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنه (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف أفندى ؟

يوسف مسرة : أنا لا ألوم الصليبان كما أنني لا أحاول فهم أسرارهم وخفائهم لعلمي أن المسألة شخصية تتعلق به دون سواه ، ولعلمي أن أخلاق الفنانين ، خصوصاً الموسيقيين منهم تختلف عن أخلاق الناس كافة . وليس من الصواب أو العدالة أن نقيس أعمالهم ومآثرهم على المقاييس التي نستخدمها لإدراك أعمال غيرهم . إن الفنى وأعنى بالفنى ذلك المبدع الذى يخلق لأفكاره وعواطفه صوراً جديدة — هو رجل غريب بين أهله وخلاته ، وغريب فى وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفنى يميل شرقاً عندما يميل الناس غرباً ، ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه أن ييسطها . فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعمساء ، ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء . الفنى فوق الشريعة رضى الناس أم غضبوا .

خليل بك : إن كلامك هذا يا يوسف أفندى لا يختلف بمعانيه ومفاده عما جاء فى مقالاتك عن الفنون الجميلة . واسمح لى أن أقول ثانية إن الروح الغريبة ، الروح الإفريقية التى تركز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة .

يوسف مسرة : هل تحسب أن ما فعله بولس أفندى ليلة أمس مظهراً للروح الإفريقية التى تنكرها وتكرهها .

خليل بك : إنى أستغرب ما فعله بولس أفندى ، أقول ذلك مع

الاحترام لشخصه .

يوسف مسرة : أو ليس للصلبان تمام الحرية أن يفعل بصوته وفنه ما يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك : نعم له تمام الحرية أن يفعل ما يشاء ، ولكننى أرى أن حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . إن ميلونا وعاداتنا وتقاليدها لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل ما فعله بولس أفندى ليلة أمس بدون أن يضع نفسه في موقف حرج .

الآنسة هيلانة : هذه مناظرة لذيدة ومفيدة . ولكن بما أن السبب في هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه . بولس الصلبان (بعد سكوت طويل) : كنت أتمنى لو لم يفتح سليم هذا الحديث . بل كنت أود أن يزول ما جرى ليلة أمس مع ليلة أمس . ولكن بما أنني في مركز حرج كما يقول حضرة البك ، فأنا لا أرى بداً من إظهار أفكارى في هذا الموضوع . أنتم تعلمون وأنا أعلم أيضاً أن أكثر من يعرفنى ينتقدنى ، هذا يقول إننى مغنج وذلك أننى أعوج . وهنالك فئة تقول إننى لئيم وليس للئيم كرامة . وما هو السبب يا ترى في هذه لانتقادات الجارحة ؟ إن السبب في أخلاقى ، نعم في أخلاقى التى لا أقدر أن أغيرها ولو قدرت لما أردت . ولماذا يا ترى يهتم الناس بى وبأخلاقى ؟ أليس بإمكانهم أن يتناسوا كيانى ؟ في هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين والموسيقيين ، وكثير من الشعراء والمقرظين ، وكثير من المبحرئين والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم وعواطفهم ، بل ويبيعون نفوسهم بدينار أو بعلفة أو بقنينة من الخمر . وقد عرف أغنياؤنا

ووجهائنا هذا السر ، لذلك تراهم يتعاون أبناء الفن والأدب بأبخس
الاثمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم ومركباتهم
في الساحات والطرق . نعم أيها السادة إن المغنين والشعراء في الشرق هم
حملة المباخر ، بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الأعراس
ويترنموا في الحفلات ويندبوا في المآتم ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي
تدار في أيام الحزن وليالي الأفراح ، فإذا لم يكن من داع للحزن أو الفرح
طرحوا جانبا كأ أنهم سلع لا قيمة لها . وأنا لا ألوم الوجهاء والأغنياء بل
ألوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضمنون بماء
وجوههم . ألومهم لأنهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . ألومهم لأنهم
لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل .

خليل بك (متبيجا) : إن القوم كانوا يستعطفونك لبلسة أمس
ويحاولون بكل وسيلة لديهم أن يسترضوك لتكرم عليهم بأغنية أو
نشيد . فهل تحسب إنشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع
والتذلل ؟ .

بولس الصلبان : لو استطعت الإنشاد في منزل جلال باشا لفعلت .
ولكنني نظرت حولي فلم أجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا
يسمعون من الأصوات إلا رنات الدنانير ، والوجهاء الذين لا يفهمون
من الحياة إلا ما يرفعهم ويخفض سواهم . نظرت حولي فلم أجد من يميز
النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الأصفهان ، لذلك لم أستطع أن أفتح
صدرى أمام العميان ، أو أعرض أسرار قلبي أمام الطرشان . إنما
الموسيقى لغة الأرواح ، هي سيال خفى يتموج بين روح المنشد وأرواح

السامعين ، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع ، فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق إلى اظهار ما فى أعماقه من الحركات والسكنات. والموسيقى مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حساسة ، فإذا تراخت تلك الأوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان . (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول ببطء) لقد تراخت أوتار روحى فى منزل جلال باشا عندما تفرست فى الحاضرين نساء ورجالا ولم أر بينهم غير المتكلف والمتصنعة والمتقلد والبليدة والعقيم والمتعجرفة . أما استعطافهم إياى فلم يكن ناتجاً إلا عن تمنعى وسكوتى . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتم أحد بى .

خليل بك (يقاطعه مداعباً) : وبعد ذلك ذهبت إلى منزل حبيب سعادة . وللنكايه — وللنكايه فقط — جلست منشدأ حتى الصباح !

بولس الصلبان : جلست منشدأ حتى الصباح لأنى أردت أن أفرغ مكنونات قلبى . لأننى أردت أن ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقى . لأننى أردت أن أعاتب الليل والحياة والدهر . لأننى شعرت بحاجة ماسة إلى شد تلك الأوتار التى تراخت فى منزل الباشا . أما إذا كنت تظن يا خليل بك أننى أردت النكايه فلك الحق أن تفتكر بما تريد . إن الفن طائر حر يسبح محلقاً عندما يشاء ويهبط إلى الأرض عندما يشاء ، وليس من قوة فى هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره . الفن روح سام لا يباع ولا يشتري ، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . أما الفنيون بيننا — وهم أندر من الكبريت الأحمر . فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنها الإناء الذى يملأه

الله خمرة علوية .

يوسف مسرة : إلى متفق معك يا بولس . ولقد أبنت أفكارى في هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا إظهارها . أنت ابن الفن أما أنا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة .

سليم معوض : الصليبان يتكلم مثلما ينشد ، وليس على سامعه إلا الاقتناع والإذعان .

خليل بك : لم أقتنع بعد ولن أقتنع . وما فلسفتكم هذه إلا إحدى تلك العلل المتسربة إلينا من بلاد الإفرنج .

يوسف مسرة : لو سمعت الصليبان منشداً يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة . (فى هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخطب الأنسة هيلانة قائلة : يا معلمتى قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة) .

يوسف مسرة (ينتصب مخاطباً الجميع) : تفضلوا أيها الإخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيدة — لذيدة جداً وتكاد أن تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها !

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة و خليل بك وسليم معوض ، أما الصليبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين في وسط القاعة وكل يحرق بوجه الآخر وفى عينيهما أشعة لاتوصف) .

هيلانة (هامسة) : هل علمت أننى كنت مصغية إليك ليلة أمس ؟
الصليبان (مستغرباً) : ماذا تعنين يا هيلانة قلبى ؟

هيلانة (بخجل ووجل) : كنت أمس في بيت شقيقتي مريم .
ذهبت لأنام عندها لأن زوجها متغيب وهي تخاف لوحدها .
الصلبان : أوبيت صهرك على طريق الحرج ؟
هيلانة : ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زقاق ضيق .
الصلبان : وهل سمعتيني منشداً ؟
هيلانة : سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر ، سمعتك
حتى سمعت الله متكلماً .
(يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلاً) :
« تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة » .
(يخرج بولس وهيلانة الستار ،

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد .
جلس الأمير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر
المتقدة ، فجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد
أمامه ، وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس .
بعد هنية وقد انتهى المرتلون من إنشادهم ، وتوارت أنفاسهم بين
طيات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام الأمير وقال بصوت تهدجه
ضآلة الشيخوخة :

أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو
أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط بمثلها ، فهو يدعو الناس إلى
الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل
إلى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير إلى مصف الآلهة . وقد جاء الليلة
طالباً الدخول عليك لייسط تعاليمه أمامك .

فهز الأمير رأسه وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب ، فأدخلوه لنسمع

حجته » .

لم تمر دقيقة حتى دخل كهل أسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين وملاح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وأميال غريبة ، وبعد أن انحنى مستأذناً رفع رأسه وتلمعت عيناه ، وطفق يتكلم عن بدعته مظهراً كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذى تختاره ، متدرجة بتأثيرات الأمور التى تختبرها، متمايلة مع الأجماد التى ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذى يسعدها ويشقيها .. ثم تطرق إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات ، مكفرة فى حاضرها عن ذنوب اقترفتها فى ماضيها ، مستغلة فى بلد مازرعته فى بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملاح الأمير سماء الملل والضجر ، اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس فى أذنه قائلاً : « كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية » .

فتراجع الحكيم إلى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً أجفانه ، كأن عينيه قد تعبتا من التحديق فى خفايا الوجود وأسراره .

وبعد سكونه شبيهة بغيوبة الأنبياء ، تلفت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثم سأل قائلاً : « أين شاعرنا فقد مر زمن ولم نره .. ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ »

فقال أحد الكهان « قد رأيته منذ أسبوع جالساً فى رواق هيكل عشتروت ، وهو ينظر بعينين جامدتين كميتتين نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده » .

وقال أحد القواد « قد رأيته بالأمنس واقفاً بين أشجار السرو

والصفصاف فحيثه ولم يرد التحية ، بل ظل غارقاً في بحر أفكاره وأحلامه » .

وقال رئيس الحصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تراود الدموع أجفانه وتلاعب الغصات بأنفاسه » .

فقال الأمير بصوت تلاحقه اللفهة « اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين ، لقد شغل بالنأمره » .

خرج العقيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعداؤه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .

وبعد هنيهة عاد رئيس الحصيان وارتمى على قدمي الأمير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الأمير قائلاً « ما الخبر .. ماذا جرى ؟ » .
فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » .

فانتصب الأمير وقد علت سحته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والمان جلت لهم أشعة السرج الصفراء جثة هامة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان « انظروا كيف عائق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته ، فتعاهدا على أن يموتا معاً » .

وقال أحد القواد « لم يزل يحدق في أعماق الفضاء كعادته ، كأنه

يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف .
وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير « غداً نقره في ظلال هيكل
عشروت المقدسة ، فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتیان
قصائده ، وتنثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً
فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً » .

فهز الأمير رأسه دون أن يحول عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب
الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا . لقد أهملناه إذ كان حياً يملأ جوانب
البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فإذا ما أكرمناه ميتاً
تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والأودية . ادفنوه ههنا
حيث فاضت روحه ، وأبقوا قيثارته بين ذراعيه . وإن كان بينكم من يريد
أن يكرمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأن الأمير قد أهمل شاعره فمات
كثيراً وحيداً منفرداً » .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ » .
فتقدم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الأمير العظيم » .
فقال الأمير « قل — قل أيها الحكيم — هل ترجعني الآلهة أميراً إلى
هذا العالم وتعيده شاعراً . هل تلبس روحي جسد ابن ملك عظيم ،
وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير . هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه
الأبدية لينظم الحياة شعراً ، وتعيدني لأنعم عليه وأفرح قلبه بالهبات
والعطايا ؟ » .

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشاؤه الأرواح تبلغه الأرواح ،
فالناموس الذى يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً

ويعيده شاعراً كبيراً » .

فانفرجت ملاحح الأمير وانتعشت نفسه ، ثم مشى نحو قصره مفكراً
في أقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله « كل ما تشاقه الأرواح تبلغه
الأرواح » .

٢

« في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد » .

طلع القمر وألقى وشاحه الفضى على المدينة ، وأمير البلاد جالس في
شرفة قصره ينظر إلى الفضاء الصافي ، مفكراً بماقى الأجيال التى مرت
متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاتحين الذين
وقفوا أمام هيبة أبى الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التى
سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره ، وانبسطت مسارح أحلامه ، التفت نحو
نديمه الجالس بقربه وقال « فى نفسنا الليلة ميل إلى الشعر فانشدنا شيئاً
منه » .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلى ، فقاطعه الأمير
قائلاً « أنشدنا شعراً أحدث عهداً » .

فانحنى النديم ثانية وأبتدأ يردد أبياتاً لأحد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال « أحدث عهداً — أحدث عهداً » .

فانحنى النديم للمرة الثالثة وأخذ يترنم بمقاطع موشح أندلسى .

(العواصف)

فقال الأمير « أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر » .

فرفع النديم يده إلى جيبه كأنه يريد أن يستحضر إلى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر . ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ، وطفق يرتل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية ومعان رقيقة مبتكرة . وكنيات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملؤها شعاعاً وتحيط بالقلب فتذيه انعطافاً .

فحدق الأمير بنديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها ، وشعر بوجود أيد خفية تجذبه من ذلك المكان إلى مكان قصي . ثم سأل قائلاً « لمن هذه الأبيات ؟ » .

فأجاب النديم « للشاعر البعلبكي » .

— الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي .. كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الأمير وولدتا في داخل روعة النبيلة أشباح أميال ملتبسة بوضوحها قوية بدقتها .

الشاعر البعلبكي اسم قديم جديد . أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسية ، وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة ، وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء .

وامحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ، مردداً آية النبي العربي « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

ثم التفت نحو نديمه قائلاً « يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقر به ونكرمه » . وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض « إنما

الشاعر طائر غريب المزاي ، يفلت من مسارحه العلوية يجيء هذا العالم
مغرّدًا ، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويعد طائرًا إلى موطنه » .
وانقضى الليل .. فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس
قميصه المنسوجة من أشعة الصباح . ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب
الوجود وغرائبه وخفايا الحياة وأسرارها .

السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية ، اجتمع سكان قرية «تولا» ، حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ، ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائي إلى مكان قصي لا يعلم به غير الله ، تاركا عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر .

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجده . ومع أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعندما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس : ما أسعده فتى ! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الإنسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا ، قيل لهم إن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيباً أو صديقاً . تعاضمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الخفية التي جعلته يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه .

إن الحياة في شمال لبنان أقرب إلى الاشتراكية منها إلى كل تعليم آخر ،
فالقوم هناك يتساهمون أفراح الوجود وشدائده ، مدفوعين بأُميال فطرية
وضعية . فإذا ما جاءت الأيام بمحادث إلى قرية ينصرف سكانها بكليتهم
إلى استقصاء ذلك الحادث حتى تحبىء الأيام إليهم بأمر آخر .
تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية ،
فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء
بسفر فارس الرحال .

وبينا هم على هذه الحالة وإذا بالخوزى إسطفان كاهن القرية يقترب
منهم منحني الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكناً
يفرك يداً بييد ، وبعد هنيهة قال :

— لا تسألوني .. لا تسألوني . كل ما أعرفه يا أبنائي هو هذا : قرع
فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر ، ولما فتحت له وجدته متمسكاً بمقود
فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد
فقال « جئت لأودعك يا أبتى . فأنا مسافر إلى ماوراء البحار ولن أعود
إلى هذه البلاد وأنا حي . ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه
نجيب مالك وطلب إلى أن أسلمها إليه يداً بيد ، فعل هذا واعتلى فرسه
وراح مسرعاً قبل أن أستوضح أمره ، هذا كل ما أعرفه فلا تسألوني
الزيادة » فقال أحد الواقفين :

— لا شك أن في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره ، لأن نجيب مالك
كان أعز صديق له في القرية .

وقال آخر :

— وهل رأيت عروسته يا أبتاه ؟

فأجاب الكاهن :

— قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت إدراكها . ولما سألتها هزت رأسها وقالت « لا أدري لا أدري » ثم طفقت تبكى وتتنحب كالأطفال . ولم ينته الكاهن من كلامه إلا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالا وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذى يحيط بمنزل فارس الرجال شاهدوا هنالك منظرأ أجعد الدم فى عروقهم والفكرة فى رؤوسهم — رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرجال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة : قد قتل نفسه . قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية فى صدره » .

فبهت القوم كأن أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد فى يمينه الرسالة التى كان قد سلمه إياها فى ذلك الصباح وقد قبض عليها بشدة ، كأنه يريد أن يجعلها جزءاً من أصابعه ، فتناولها الكاهن ووضعها فى جيبه دون أن يراه أحد ، ثم تراجع إلى الوراء لاطماً وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر إلى بيت والدته المسكينة التى لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فافتادوها إلى منزلها بين حية وميتة .

ولما بلغ الخورى إسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلاً الرسالة التى وجدها فى يد نجيب مالك ، وبصوت مرتعش أخذ يقرأ :
أخى نجيب :

أنا تارك هذه القرية لأن وجودى فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتى ولى أيضاً . أنا أعلم أنك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك . وأعلم أن زوجتى سوسان طاهرة الذيل ، ولكننى أعلم فى الوقت نفسه أن الحب الذى يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق إرادتكما . فأنت لا تستطيع إزالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجارى نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً يا نجيب مذكنا صبيين نلعب فى الحقول وفى ساحة الكنيسة ، وأنت لم تنزل صديقى أمام الله ، وأرجوك أن تفكرنى فى المستقبل مثلما كنت تفكرنى فى الماضى ، وإذا التقيت بسوسان غداً أو بعده فقل لها إنى أحبها وأرحمها . وقل لها أيضاً إنى كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيقظ فى سكرينة الليل وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكى وتنتحب وتجلد صدرها . ليس أصعب من حياة المرأة التى تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينة كانت فى حرب دائم . كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها . أما أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود إلى هذه الديار ، لأنى لا أريد أن أكون

حجر عثرة في سبيل سعادتكما . وفي الختام أرجوك يا أخى أن تبقى مخلصاً لسوسان ، وأن تحافظ عليها حتى النهاية لأنها قد ضحت كل شيء من أجلك . فهى تستحق كل ما يستطيع الرجل أن يقدم للمرأة . ابق يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس ، والله يحفظك لأخيك .

فارس الرحال

ولما انتهى الخورى إسطفان من قراءة الرسالة ، طواها وأعادها إلى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادى البعيد وعلى وجهه المتجعد أمارات التفكير العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا أفكاره سراً دقيقاً هائلاً محجوباً بالظواهر ملتفاً بالسطحيات . فهتف صارخاً : ما أكثر دهائك يا فارس الرحال : فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت إليه بالسم ممزوجاً بالعسل ، قد بعثت إليه السيف ملتفاً بالحرير . قد بعثت إليه الموت طى الرسالة . فعندما صوب بندقيته إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محكمة بإرادته .. أواه ما أكثر دهائك يا فارس الرحال .

وعاد الخورى إسطفان فجلس على المقعد هازأ رأسه ممشطاً لحيته بأصابعه ، مبتسماً ابتسامات ذات معان أشد هولاً من المأساة ، وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قرية وأخذ يتلو بعض موشحات القديس أفرام السريانى ، وهو يرفع عينيه بين الآونة والأخرى ليسمع ضراخ النساء آتياً من قلب القرية .

ما وراء الرداء

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينها وحدقت هنيئة بسقف الغرفة ، ثم أغمضتهما وتنهدت تنهدة عميقة متقطعة ، وبصوت يكاد أن يكون لهاثاً قالت :

« ها قد بلغ الصباح أطراف الوادى ، فلنذهب إلى لقائه » .

فاقترب إذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدتها باردة كالثلج ، ثم وضع أصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً كالدهور ، فأحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد أن يلفظ كلمة علوية ترددها أشباح الليل فى تلك الأودية القاصية الخالية . ثم صلب ذراعها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس فى قرنة مظلمة من تلك الغرفة ، وقال بصوت ملؤه الشفقة والانعطاف : « قد ذهبت زوجتك إلى لقاء ربها . فقم يا أحنى اركع بجانبى لنصلى » .

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى فى فضاء الغرفة ظل إله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً منتحباً ، راسماً بين الآونة والأخرى إشارة الصليب على وجهه وضدرة .

وانصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلاً :

(العراف)

« قم يا أخى ! تعال إلى الغرفة الثانية . فأنت بحاجة إلى النوم والراحة » .

فلم يبد الرجل معارضة ، بل وقف وسار إلى الغرفة المحاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار .

ولم تمر بضع دقائق حتى غلب النوم أجفانه فرقد كطفل بين ذراعى أمه . .

أما الكاهن فظل منتصباً كاتتمثال وسط تلك الغرفة بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ، ويلتفت كل دقيقة نحو زوجها النائم فى الغرفة المحاذية .

ومرت ساعة أطول من الدهر وأشد هولا من الموت ، والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين .. رجل راقد رقود حقل يحلم بمجىء الربيع ، وامرأة راقدة مع الأزمنة الغابرة تحلم أحلام الأبدية .

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا أمامها كما يجثو أمام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها على شفثيه المرتجفتين ونظر إلى وجهها المتشع بنقاب الموت ، وبصوت هادئ كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :

« ياراحيل ، ياراحيل ، يا أخت روحى ، اسمعنى ياراحيل فأنا أستطيع الآن الكلام . قد فتح الموت شفثى لأبوح لك بسر أعظم من الموت ، وأطلق الألم لسانى لأكشف لك أمراً أشد من الألم . اسمعى

صراخ روحى أيتها الروح المرفقة بين الأرض واللا نهاية . اسمعى الشاب الذى كان يراك راجعة من الحقل فيتحنى محتجباً بين الأشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعى الكاهن الذى يخدم الله فهو يناديك الآن بلا وجل لأنك بلغت مدينة الله .

همس هذه الألفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبل عنقها — قبلات طويلة حارة ، خرساء « علوية » تبين ما فى نفسه من أسرار الحب والألم .

ثم تراجع فجأة إلى الوراء وارتمى على الأرض مرتعشاً كأوراق الخريف ، كأن ملامسة وجه المرأة الثلجة قد أيقظت فى داخله عاطفة الندم . ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلاً فى سره :

« اغفر ذنبى يا رب ! سامح ضعفى يا إلهى ! فأنا لم أتجلد حتى النهاية . فالسر الذى أخفته الحياة فى قلبى سبعة أعوام قد أباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لى يا رب سامح ضعفى يا إلهى .. » .

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ، ولا ينظر إلى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح وألقى وشاحه الوردى على تلك الرسوم الهيولية التى تمثل الحب والدين والحياة والموت .

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين أترابها وتتايل فرحة بين قامات الأعشاب .

ففي صباح ، وقد تكللت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حوالها فرأت وردة تتناول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الأزرق وقالت متنهدة « ما أقل حظى بين الرياحين ، وما أوضع مقامى بين الأزهار : فقد ابتدعتنى الطبيعة صغيرة ، حقيرة أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتى نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهى نحو الشمس مثلما تفعل الورود » .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت : « ما أغباك بين الأزهار ، فأنت فى نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخل عنك هذه الميول العوجاء والأمانى الشريرة وكونى قنوعة بما قسم لك ، واعلمى أن من خفض جناحه يرفع قدره ، وأن من طلب المزيد وقع فى النقصان » .

فأجابت البنفسجة قائلة : أنت تعزىنى أيتها الوردة لأنك حاصلة على

ما أتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لأنك عظيمة . وما أمر مواعظ السعداء في قلوب التعساء ، وما أقسى القوى إذا وقف خطيباً بين الضعفاء !) .

وسمعت الطبيعة مادار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ، ثم رفعت صوتها قائلة :

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك ، عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟ » .

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :
« أيتها الأم العظيمة مجبروتها الهائلة بجنانها ، أضرع إليك بكل ما في قلبي من التوسل ، وما في روحي من الرجاء أن تحيبي طلبى وتجعلينى وردة ، ولو يوماً واحداً » .

فقالت الطبيعة : « أنت لا تدرين ما تطلين ولا تعلمين ما وراء العظمة الظاهرة من البلايا الخفية ، فإذا رفعت قامتك وأبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم » .

فقالت البنفسجة : « حوّل كياني البنفسجى إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس . ومهما يحل لى بعد ذلك يكن صنع رغائى ومطامعى » .

فقالت الطبيعة : « لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة المتمردة ، ولكن إذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من

نفسك » .

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ، ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت وأرعدت وأخذت تحارب تلك الحداثق والبساتين بجيش عرمرم من الأمطار والأهواء . فكسرت الأغصان ولوت الأنصاب واقتلعت الأزهار المتشاحخة ، ولم تبق إلا على الرياحين الصغيرة التى تلتصق بالأرض أو تختبئ بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العواصف ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها هباء منثوراً ، ولم يسلم منها بعد تلك الممعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار الحديقة .

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقة وأشجارها ، فابتسمت فرحة ثم نادت رفيقاتها قائلة : « ألا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشاحخة تيهاً وإعجاباً ! » .

وقالت بنفسجة أخرى : « نحن نلتصق بالتراب ولكننا نسلم من غضب العواصف والأنواء » .

وقالت بنفسجة ثالثة : « نحن حقيرات الأجسام غير أن الزواجر لا تستطيع التغلب علينا » .

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة ، وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الأرياح وألقته على الأعشاب المبللة فبان كقتيل أرداه العدو بسهم .
فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة :
« تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن إلى البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت إلى وردة لتتشاخص ساعة ثم هبطت إلى الحضيض . ليكن هذا المشهد أمثلة لكن » .

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

« ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والإعصار . فقد كنت بالأمس مثلكن أجلس بين أوراق الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوايا الحياة وأهوائها ، ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة متناهيماً بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بإمكانى أن أعيش نظيركن ملتصقة بالتراب حتى يغمرني الشتاء بثلوجه ، وأذهب كمن ذهب قبلي إلى سكينه الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخباته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض . لقد كان بإمكانى الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلو بطبيعتها عن طبيعتي ، ولكنني أصغيت في سكينه الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم « إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود » . فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني ومازلت أتمرد على ذاتي

وأشوق إلى ما ليس لي حتى انقلب تمردي إلى قوة فعالة ، واستحال شوقي إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة — وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لأحلامنا الخفية — أن تحولني إلى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق .

وسكنت الوردة هنيئة ، ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق :
« أرى لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود وسمعت همس الأثير بأذان الورود .. ولمست ثنايا النور بأوراق الورود . فهل بينكن من تستطيع أن تدعى شرفي ؟ »

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد أن يكون لهاثاً قالت :
(أنا أموت الآن . أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلى . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذى ولدت فيه ، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالى) .

وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليلا ، ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة أمانه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله .

الشاعر

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشية موجعة ، غير أنها تجعلني
أن أفكر أبداً بوطن سحري لا أعرفه ، وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية
مارأتها عيني .

أنا غريب عن أهلي وخلاتي ، فإذا ما لقيت واحداً منهم أقول في ذاتي :
« من هذا ، وكيف عرفته ، وأي ناموس يجمعني به ، ولماذا أقرب منه
وأجالسه ؟ » .

أنا غريب عن نفسي ، فإذا ما سمعت لسانى متكلمة تستغرب أذني
صوتي ، وقد أرى ذاتي الخفية ضاحكة باكية ، مستبسلة ، خائفة ،
فيعجب كياني بكياني ، وتستفسر روحي ، ولكنني أبقى مجهولاً ،
مستتراً ، مكتنفاً بالضباب ، محجوباً بالسكوت .

أنا غريب عن جسدي ، وكلما وقفت أمام المرأة أرى في وجهي مالا
تشعر به نفسي ، وأجد في عيني مالا تكنه أعماقي .

أسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين : « هو ذا الأعمى
فلنعطه عكازاً يتوكأ عليها » . فأهرب منهم مسرعاً ، ثم ألتقي بسر من
الصبايا فيتشبثن بأذيالي قائلات : « هو أطرش كالصخر فلنملاً أذنيه

بأنغام الصبابة والغزل . فأتركهن راكضاً . ثم ألتقى بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين : هو أخرس كالقبر فتعالوا نُقوِّم اعوجاج لسانه . فأغادرهم خائفاً . ثم ألتقى برهط من الشيوخ فيومثون نحوي بأصابع مرتعشة قائلين : « هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان » .

أنا غريب في هذا العالم .
أنا غريب وقد جبت مشارق الأرض ومغاريها .
فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع لي .
أستيقظ في الصباح فأجدني مسجوناً في كهف مظلم تتدلى الأفاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته . ثم أخرج إلى النور فيتبعني خيال جسدي ، أما خيالات نفسي فتسير أمامي إلى حيث لا أدري ، باحثة عن أمور لا أفهمها ، قابضة على أشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء أعود وأضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القَتَّاد ، فتراودني أفكار غريبة وتتناوبني آميال مزعجة مفرحة موجعة لذيدة ، ولما ينتصف الليل تدخل على من شقوق الكهف أشباح الأزمنة الغابرة وأرواح الأمم المنسية ، فأحرق بها وتحرق بي ، وأخاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ، ثم أحاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كال دخان .

أنا غريب في هذا العالم .
أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي .

أسير في البرية الخالية فأرى السواقى تتصاعد متراكضة من أعماق
الوادي إلى قمة الجبل ، وأرى الأشجار العارية تكتسى وتزهر وتثمر
وتنثر أوراقها في دقيقة واحدة ، ثم تهبط أغصانها إلى الحضيض وتحول
إلى حيات رقطاء مرتعشة . وأرى الأطيّار تنتقل متصاعدة ، هابطة ،
مغردة مولولة ، ثم تقف وتفتح أجنحتها وتقلب نساءً عاريات ،
محلولات الشعر ، ممدودات الأعناق ينظرن إلى من وراء أجفان مكحولة
بالعشق ، ويتسمن لي بشفاه وردية مغموسة بالعسل ، ويمددن نحوي
أيادي بيضاء ناعمة معطرة بالمن واللبان ، ثم ينتفضن ويختفين عن ناظري
ويضمحلن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن منى
واستهزاءهن لي .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ، ولهذا أنا غريب وسأبقى
غريباً حتى تحطفني المنايا وتحملني إلى وطني .

الكلام وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين .
لقد تعبت روى من الكلام والمتكلمين .
لقد ضاعت فكرتى بين الكلام والمتكلمين .
أستيقظ فى الصبح فأرى الكلام جالساً بجانب مضجعى على
صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر إلى بعيون ملؤها الدهاء
والخبث والرياء .

أغادر فراشى وأجلس إلى جانب النافذة لأزىح نقاب النوم عن بصيرتى
بفنجان من القهوة ، فيتبعنى الكلام ويتنصب أمامى راقصاً صارخاً
معربداً ، ثم يمد يده مع يدى إلى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافى .
وإذا تناولت لفافة يتناولها معى . وإذا رميت بها رماها معى أيضاً .
أقوم للعمل فيلحق بى الكلام موسوساً فى أذنى ، مهنهماً حول
رأسى . مفرقناً فى خلايا دماغى . فأحاول طرده فيضحك مقهقهاً ، ثم
يعود إلى الوسوسة والهمهمة والفرقة .

أخرج إلى الشارع فأرى الكلام واقفاً فى باب كل حانوت ، منبسطاً
على جدران كل منزل . أراه فى أوجه الناس وهم صامتون . وفى حركاتهم
وسكناتهم وهم لا يدرون .

إن جالست صديقى يكون الكلام ثالثنا . وإن التقيت بعدوى ينتفخ
الكلام إذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحولاً إلى جيش عرمرم أوله مشارق
الأرض وآخره مغاربها . فإذا غادرته هارباً ظل صدى كلامه يتمايل

مختبئاً فى باطنى اختباط طعام لا تهضمه المعدة .
أذهب إلى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبأ الكلام وأخاه
وهم يلبسون الكذب رداء ، والاحتتيال عمامة وحذاء .
ثم أسير إلى المعمل وإلى المكتب وإلى الإدارة فأجد الكلام واقفاً بين أمه
وعمته وجدته ، وهو يقلب لسانه بين شفتيه الغليظتين وهن يتسمن له
ويضحكن منى .

وإذا بقى لى شىء من العزم والتجلد وزرت المعابد والهياكل ، رأيت
هناك الكلام جالساً على عرشه وهو متوج الرأس وفى يده الصولجان دقيق
الصنع لطيف الجوانب ناعمها .

وعندما أعود فى المساء إلى غرفتى أجد الكلام الذى سمعته سحابة
نهارى متديلاً كالأفاعى من سقفها . منسلاً كالعقارب فى قرانها .
الكلام فى الفضاء وما وراءه . وعلى الأرض وتحتها .
الكلام على أجنحة الأثير ، وفى أمواج البحر ، وفى الغيايات
والكهوف ، وفوق قمم الجبال .

الكلام فى كل مكان ، فإلى أين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟
أوجد فى هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمى إليها ؟
هل يرحمنى الله ويمنحنى موهبة الطرش فأحيا سعيداً فى جنة السكون
الأبدى ؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشقة اللسان وبلبله
الألسنة ، حيث الكلام لا يباع ولا يشترى . ولا يعطى ولا يؤخذ .
ليت شعرى أين سكان الأرض من لا يعبد نفسه متكلماً ؟ هل يوجد

بين طغيات الخلق من لم يكن فمه مغارة للصوص الألفاظ !

*** .

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ، ولكنهم أنواع وأشكال لا عداد لها .

فهناك طائفة « المستضعفين » الذين يعيشون في المستنقعات النهار وطوله . وعندما يجئ المساء يقتربون من الشواطئ رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء ، مغممين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والأرواح . وهناك طائفة « المستبعضين » والبعوض من مولدات المستنقعات أيضاً ، وهم الذين يرفرفون حول أذنك بنغمة تافهة رفيعة شيطانية صداها النكاية ولحمتها البغضاء .

وهناك طائفة « المستطحين » وهي طائفة غريبة في داخل كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول فيولد جمعجة جهنمية أخفها أثقل مما تحدثه حجارة الرّحى .

وهناك طائفة « المستبقرين » وهم الذين يملأون أجوافهم حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة مبطينين الهواء بخوار ألطفه أغلظ من خوار الجاموس .

وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة وأحداثها ، محولين سكينه الدجى إلى عويل أفرأحه أحزن من نعيب البوم .

وهناك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة إلا أخشابها فيصرفون الأيام بتجزئتها وتفصيلها محدثين بذلك خشخشة أعذبها أضنك مما تحدثه المناشير .

وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من أفواههم الفارغة فرقة ألطفها أغلظ من قرقة الطبول .
وهناك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويمضغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه
وهناك طائفة « المستهزين » وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضاً ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجون والمجون ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التى تحرك الهواء بالهواء ، ولكنها تظل هى بدون قمصان ولا سراويل .

وهناك طائفة « الزرازير » التى قال عنها الشاعر :
« لما حام حائمها توهمت أنها صارت شواهينسا » .
وهناك طائفة « الأجراس » وهى تدعو الناس إلى الهياكل ولكنها لا تدخلها .

وهناك طوائف وعشائر لا تعد ولا تحصى ولا توصف ، أغربها فى عقيدتى طائفة نائمة تملأ الفضاء غطيظاً ولكنها لا تدرى .

والآن وقد أبت بعض قرى واشتمزأى من الكلام والمتكلمين ، أراى كالتبيب المعتل أو كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبى قبيل أن يرخصنى وينقلنى إلى غابة الفكر والعاطفة ، وألحق حيث لا كلام ولا متكلمون .